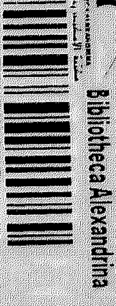
محمد عبد المنعم خفاجي

صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام

رابطة الأدب الحديث



محمد عبد المنعم خفاجي

صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - تليفون : ٥٠٨٥٢

تصدير

فى هذا الكتاب « صور من الفكر العربى وتاريخ الإسلام » قدمت للقارىء ألوانا عديدة من أروع المواقف وأخلدها فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، ومن مظاهر التحول فى تاريخ الفكر العربى ، وعرضت بالدراسة والترجمة والتحليل لبعض نوابغ الفكر الإسلامى العربى ، وأثرهم فى تطور النهضة العقلية الأدبية فى شتى بلاد العروبة ، وتحدثت عن بعض مشكلات الأدب والنقد والشعر ، وعن مواطن الأدب فى العصور القديمة ، وعن أشياء أخرى ، أعتقد أنها مما تتصل بتفكيرنا الحاضر من قريب .

ومن حظى أن أقدم هذه الدراسات إلى القارىء ، ليقرأها ، وليحكم لها أو عليها ، وأشهد أنى قد أجهدت نفسى فيها : فى تقريب الفكرة ، وتوضيح الهدف ، وتبسيط الأسلوب ، إجهادا شديدا .

ومن الله ، ومن رضاء القراء ، وحسن ظنهم بى ، أستمد العون والتوفيق ؟

المؤلف



التكوين السياسى
للدولة الإسلامية الأولى

(١)

وأخيراً انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة الكفاح المقدس من أجل الرسالة الإلهية التى حملها وجاهد من أجلها ، انتصر فى نضاله الخالد لأعداء السلام والحرية ، حطم الحصار الاقتصادى الذى فرضه مشركو مكة عليه وعلى أصحابه وقومه ، وحطم حرب الدعاية التى قصدت من ورائها قريش إلى صرف الناس عنه وعن دعوته ، وانتصر على دعاة الحرب والخصام ، وعلى أعوان الشرك والوثنية .

وأفلت من السجن الكبير الذى أحاطه به المشركون فى مكة ، وهاجر من مكة إلى المدينة بعد ما صادف من أهوال ، ولاقى من شدائد ، واعترضه من محن وخطوب .

لقد كان يدعو فى مكة دعوة السلام والإسلام ، ولكن الآذان التى اعتادت سماع صيحات الحروب والأخذ بالثأر ، والقلوب التى تحجرت وأصبحت تدين بطقوس الوثنية الجاهلية الحمقاء ، وعميت عن فهم الدعوات الجديدة الحرة ، والزعماء الذين هالهم أن يتنازلوا عن كبريائهم وامتيازاتهم وطبقيتهم ، كل أولئك وقف للرسالة الجديدة موقف العداء والخصومة .

ومن ثم كانت هجرته صلوات الله عليه انتصارا للسلام ، وللحرية الإنسانية ، ولكرامة الإنسان ، وكانت حدثا جليلا فى تاريخ الإنسانية أرخت به شعوب الحضارة الإسلامية حياتها منذ الهجرة حتى اليوم ، لقد كانت الهجرة تعنى قيام الدولة الإسلامية الجديدة لأول مرة فى التاريخ ، كانت تعنى قيام جمهورية اشتراكية فى المدينة ، يتعاون فيها الجميع على نشر السلام ومبادىء الإسلام ، كانت تعنى أن الفكرة الإسلامية وجدت مجتمعها الجديد الذى تعيش فيه ، وتتبلور مبادئها فى كيانه ، وتنفذ من نطاقه لتطل على العالم بوجه جديد فى عصر جديد ، وحضارة اشتراكية حرة تعاونية جديدة .

وفى المدينة وضع الرسول نواة الحياة الجامعية الحرة ، حين بدأ فبنى المسجد النبوى واتخذه مكانا للعبادة ولنشر تعاليم الإسلام .

وكانت خطبه الأولى فى المدينة تدعو إلى التعاون والإيثار والبر والمعروف والإحسان والمحبة والطاعة ، يقول صلوات الله عليه فى خطبة له من أوائل خطبه بالمدينة :

« إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى . قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ؛ واختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، الصالح الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن دعامة التكوين السياسى الأول للجمهورية الإسلامية الأولى أن بدأ رسول الله فآخى بين الأنصار والمهاجرين ، ثم طمأن الأقليات فى الجمهورية الإسلامية ومن بين الأقليات اليهود ، وكان الهدف من ذلك تحقيق وحدة يثرب السياسية .

كان وصول الرسول صلوات الله إلى المدينة فى الثانى عشر من ربيع الأول ، الثامن والعشرين من يونيو ٦٢٢ ميلادية ، واتخذ الأذان شعارا للدولة الجديدة أو بمثابة نشيد إسلامى موحد ، يؤذن به للصلوات ، وتفتح به الجماعات ، ويدعى به للأمور العامة الجامعة : « الله أكبر الله أكبر الله أكبر

الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة . حى على الفلاح ، حى على الفلاح ؛ الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

كانت الحكومة فى المدينة جمهورية لأن الحكم فيها كان لجمهور المسلمين ؛ وكان الرسول لا يتولى الصدارة والإمامة فى هذه الحكومة إلا لأنه صاحب الرسالة ، ولم يتخذ الرسول لنفسه ميراثا من الحكم ، ولم يجعل لأسرته شيئا من الجاه والنفوذ ، وكان الحكم الشورى أساس حكمه ، ولا يمكن أن نقول إن الحكم كان فى الدولة الجديدة قائما لمصلحة فرد أو طبقة ، بل إنه كان لعامة جمهور المسلمين ، كان رئيس الدولة هو صاحب الرسالة ، اختاره الله ورضى به أصحابه ليتولى الإمامة والزعامة والصدارة الروحية والسياسية فى الجمهورية الإسلامية الجديدة ، ولم يعين رسول الله طبقة تخلفه فى الحكم ، ولا دعا لحكم آل بيته من بعده ، فهى جمهورية : الحكم فيها للشعب ومن أجل الشعب .

وكانت هذه الجمهورية الأولى هى النواة الأولى للتكوين السياسى للجمهورية الإسلامية الجديدة ، وكان ميلادها بدء تاريخ جديد فى حياة الإنسانية والحضارة ، ومن ثم استحق يوم ميلادها أن يجعل عيدا عاما للمسلمين ، وبدءاً لتاريخهم العام .

(٢)

ولم يكن قيام هذه الجمهورية يعنى فى شىء أكثر من أن الجزيرة العربية ـ التى صارت مهبط الوحى السماوى ـ قد انقسمت على نفسها ، فللوثنية دولة فى مكة وللإسلام دولة فى المدينة ، ومن أجل ذلك لم يكن التكوين السياسى للدولة الإسلامية قد تم لأن الخطر كان يتهدد الإسلام فى كل لحظة ، ومصدره مكة ، ولأن الاستقرار السياسى لم يكن قد أصبح حقيقة ثابتة فى حياة المسلمين بعد .

ومن ثم استمر النضال العسكرى بين الوثنية والإسلام أعواما أخرى ، فى بدر ، ثم فى أحد ، وسواهما .

(٣)

ولم ينته هذا النضال إلا فى مكة نفسها . مكة التى حاربت الإسلام بكل ما استطاعت من قوة . وإن كانت هى منبعه ومهبطه ، مكة التى بلغت عداوة قريش فيها لمحمد ورسالته نهايتها القصوى ، حتى أقدمت على نقض صلح الحديبية بمساعدتها لحلفائها بنى بكر على الاعتداء على خلفاء الرسول من بنى خزاعة حتى فى الكعبة نفسها ، ونجم عن ذلك أن توجه وفد من بنى خزاعة إلى المدينة يستنصر الرسول ، فبادر محمد يطلب من قريش إحدى ثلاث :

١ — دفع الفدية لمن قتل من بنى خزاعة .

٢ — أو التخلى عن حلفائهم بنى بكر ،

٣ — أو إعلان بطلان عهد الحديبية الذى كان ينص على أن من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه .

وجاء رد قريش بنقض صلح الحديبية ، وذهب أبو سفيان وقد شعر بالخطر يتهدد مكة وتجارتها إلى المدينة يحاول تثبيت عهد الحديبية وأن يزاد فى مدته ، ولكن رسول الله صلوات الله عليه فطن إلى مكره ، ورفض تجديد العهد .

ومن ثم كان لا مفر من أن يستعد المسلمون للقيام بحملة عسكرية هدفها مكة والقضاء على مراكز الوثنية ونشاطها فيها ، وتوحيد الجزيرة العربية سياسيا وروحيا لتبدأ من جديد حياتها الصالحة الطيبة ، ولذلك اتصل الرسول بالمسلمين فى أنحاء الجزيرة العربية ليكونوا على أهبة الاستعداد لإجابة ندائه .

ولم يكن المسلمون يخفى عليهم حرب قريش للإسلام قبل الهجرة وبعدها ، وهجومهم على المدينة مرات لإبادة المسلمين فيها .

وبدأت محاولات الخيانة فى المدينة ، فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا

أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ينبئهم فيه بما أعد محمد لهم من استعداد عسكرى ، ولكن الرقابة الدقيقة التى أقامها المسلمون على مسالك المدينة وصدق الوحى المنزل من السماء ، وصدق فراسة أصحاب رسول الله ، أدى كل ذلك إلى مصادرة الرسالة ومنعها أن تقع فى أيدى الأعداء .

ومضى رسول الله بجيش ضخم عدده عشرة آلاف من المؤمنين ، إلى مكة ، وبهذا تحققت كلمة الله التى نطق بها موسى منذ ألفى عام : « جاء ومعه عشرة آلاف من الأبرار[١] »

لم يكن الرسول يريد القتال وإراقة الدماء ، بل نشر الخير والسلام ، ونزل ونزل الجيش معه بمر الظهران على مسيرة يوم من مكة ، وصدرت الأوامر بأن توقد النيران فى المعسكر جميعه ، ليدب الرعب فى قلوب قريش فيستسلموا ويسالموا ، وينتهى القتال .

نزل الرسول مر الظهران ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، لايدرون ماالرسول فاعل ، وفى إحدى الليالى خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا ، أو يسمعون بخبر ، ولقيهم فى الطريق العباس بن عبد المطلب وهم يتحادثون وأبو سفيان يقول : والله مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا قط ، ويرد عليه بديل بن ورقاء : هذه والله خزاعة .

— أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .
— العباس يعرف صوت أبى سفيان فيناديه : ياأبا حنظلة .
— أبو سفيان يعرف صوت العباس فيناديه : يا أباالفضل .
— العباس : نعم .
— أبو سفيان : مالك فداك أبى وأمى .

---

(١) تثنية الاشتراع ٣٣ ، ٢ .

ــ العباس : ويحك ياأبا سفيان هذا رسول الله فى النـاس واصباح قريش والله .

ــ أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى .

ــ العباس : والله لئن ظفر بك ليضرب عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ،فأستأمنه لك .

ــ أبو سفيان يركب خلف العباس ويرجع صاحباه .

ومر العباس به على معسكر المسلمين . فجعل كلما مر بنار من نيران المسلمين ، قالوا من هذا ؟ فإذا رأوا فرس رسول الله والعباس عليها قالوا : عم رسول الله على فرسه ، حتى مر بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ، وقام إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ، وتوجه العباس بأبى سفيان نحو رسول الله ودخل عمر على الرسول ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ، فدعنى فلأضرب عنقه .

ــ العباس مبادرا : يارسول إنى قد أجرته ، ثم جلس العباس إلى رسول الله يكلمه ، وعمر يكـثر من الـكلام فيما قال ، فبادره العباس : مهلا ياعمر فوالله لو كان رجلا من بنى عدى ماقلت هذا ولـكنك قد عرفت أنه من بنى عبد مناف .

ــ عمر : مهلا ياعباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ومابى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم .

ــ الرسول صلى الله عليه وسلم : اذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به .

ــ العباس يذهب به إلى رحله فيبيت عنده فلما أصبح غدا به إلى رسول

الله ، فلما رآه الرسول قال صلوات الله عليه وسلم : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد .

— الرسول صلوات الله عليه : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .

— أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا .

— العباس : ويحك اسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك .

— أبو سفيان : يشهد ويسلم .

— العباس : يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا

— الرسول صلوات الله عليه : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

— أبو سفيان يذهب لينصرف فيقول رسول الله للعباس :

— يا عباس احبسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .

وأخذت تمر القبائل على راياتها فكلما مرت قبيلة قال : أبو سفيان : يا عباس من هذه ؟ فيقول : سليم ، فيقول أبو سفيان : مالى ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول : ياعباس : من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، وظل كذلك حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء(١) فقال أبو سفيان : يا عباس من هؤلاء ، قال : قلت هـــذا رسول الله فى

---

(١) سميت بذلك لكثرة الحديد وظهوره فيها .

المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولاطاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

— العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة .

— أبو سفيان : فنعم إذن .

— العباس : النجاء يا أبا سفيان إلى قومك .

— أبو سفيان : يذهب إلى قومه ، حتى إذ جاءهم صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لاقبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

— هند بنت عتبة : تنهض وتأخذ بشارب أبي سفيان وتقول : قبحت من طليعة قوم .

— أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

— القوم يردون عليه : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ .

— أبوسفيان : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

إن هذا لأكبر رد على من يذهبون إلى أن الإسلام دين السيف فما كان بين شروط الأمان جبر المشركين على الدخول فى الإسلام .

تقدم المسلمون إلى المدينة ، وأمر الرسول أن يفرق الجيش إلى أربع فرق ، وأمرها جميعا ألا تقاتل ، وألا تسفك دما ، وكان سعد بن عبادة على فرقة منها ، فلما مر سعد على أبي سفيان صاح : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » فلم يؤيده رسول الله ، وأخذ الراية منه ، ودفعها إلى ابنه حقنا للدماء .

ودخل خالد بن الوليد مكة من حى خصوم خزاعة ، وكان بينهم عكرمة

ابن أبي جهل : وعلى الرغم من إعلان العفو العام ، لم يدعوا خالدا يدخل ، وأمطروا جيشه نبالا ، فاضطر خالد إلى تفريقهم ، وقتل من رجاله رجلان وفقدت قريش ثلاثة عشر رجلا ، وصعد محمد صلوات الله مرتفعا لينزل منه إلى مكة ، فأبصر سيوف خالد تعمل فى رقاب أهل مكة ، فصاح مغضبا ، واستدعى خالدا يذكره بأمره ألا يكون فيها قتال مكة ، واستسلم المشركون .

ونزل رسول الله مكة ، واطمأن الناس ، ثم جاء البيت ، فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، فدخلها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع الناس له فى المسجد ، وقام الرسول على باب الكعبة فقال :

«لا إله إلا الله ، وحده ، لاشريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أودم او مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانه البيت ، وسقاية الحجاج ، يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ثم قال : يامعشر قريش : ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وانطلق النبي يطهر الكعبة المكرمة من أصنام الوثنية ، وراح يطعنها بعود فى يده ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل « إن الباطل كان زهوقا » .

ومن هذه اللحظة الحاسمة انتهت عبادة الأصنام من جزيرة العرب ، وما وجدت صورة أو صنم طريقها إلى البيت الحرام ، وأصبحت عبادة التوحيد والإسلام هى السائدة فى جزيرة العرب .

وكان من الذين هاجموا خالدا عكرمة ، فلما استتب الأمر لمحمد هرب عكرمة ، وجاءت زوجه إلى الرسول تطلب الأمان له فأمنه الرسول فلحقت

به باليمن فجاءت به ، وخرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هاربا منك ليقذف بنفسه فى البحر ، فأمنه صلى الله عليه وسلم ، قال : هو آمن ، قال : يارسول الله فأعطنى آية يعرف بها أمانك فداك أبى وأمى ، فأعطاه رسول الله عمامته التى دخل فيها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب فى البحر ، فقال : ياصفوان فداك أبى وأمى ، أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك ، عزه عزك وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال : إنى أخاف على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم ، فرجع معه ، حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان إن هذا يزعم أنك قد أمنتنى ، قال صلوات الله عليه : صدق ، قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين ، قال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وشملت رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحشيا الذى قتل حمزة ، وهندا التى لاكت كبده ، فعفا عنهما ، وصفح عمن صفع ابنته وهى فى طريقها من مكة إلى المدينة صفعة كانت السبب فى القضاء عليها ، وليس فى تاريخ الفتوحات حلم كهذا الحلم ، ولا تسامح يشبه هذا التسامح ، ولا يوجد فى حياة إنسان آخر مثل هذا الغفران النبيل ، والرحمة الرفيقة ، فما سنحت لرسول الله فرصة للتسامح والعفو إلا سامح وعفا ، مع قدرته على عقوبة المذنبين .

(٤)

فتحت مكة ، واستولى المسلمون عليها ، وكان لخلق القائد الأعظم وتسامحه ورحمته أثرها فى دخول الناس فى دين الله أفواجا ، ولانت قلوب ما كانت لتلين ، وتأثر أبو سفيان وزعماء الشرك والوثنية بمبادىء الإسلام القويمة السامية ، وقضى نبل المسلمين وكرم أخلاقهم على جميع أسلحة قريش وحطم معارضتها ، فخضعت وأطاعت وآمنت بالرسالة وصاحبها وقبلت مكة سلطان محمد بفرح وسرور عظيمين ، وقابل محمد ذلك بشكر الله عزوجل على نعمته

عليه وعلى الإسلام والمسلمين : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » .

(٥)

وبفتح مكة سقط آخر معقل للوثنية فى جزيرة العرب ، وصارت مكة والمدينة تشتركان فى التوجيه السياسى والروحى للإسلام والمسلمين ، وتم التكوين السياسى للدولة الإسلامية الجديدة التى قامت على الحق والتوحيد والتعاون بين الناس جميعا ، وعلى محاربة الظلم والطغيان والاستبداد ، وعلى نشر السلام فى الأرض ، وعلى أنبل المثل وأكرم المبادىء .

وصار للإسلام دولة قوية تدافع عنه وتؤمن به ، وتسعى لتطبيقه ونشره بين الناس .

من مواكب التاريخ

(١)

اليوم هو الرابع من شهر ربيع الأول — ٢٠ يونيو ٦٢٢ م ، والمكان هو الطريق بين مكة والمدينة على بعد أميال من مكة ، هناك هناك شبحان يسيران بعيدا بعيدا ، على جملين قويين ، ورائدهما فى هذه الرحلة الطويلة فى طريق الساحل بين مكة والمدينة هو عبد الله بن أريقط .

وخلفهما من بعيد يعدو شاب قوى جلد على جواد أصيل ، وهو يحث الجواد ليلحق بهما .

أما الشبحان فرسول الله محمد بن عبدالله صلوات الله عليه ورفيقه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأما الشاب الذى يعـــدو خلفهما بفرسه فسراقة الكنانى المكى .

كان محمد صلوات الله عليه فى هذا اليوم فى رحلته الخالدة ، وهجرته الماجدة ، هذه الهجرة التى أعز الله بها الإسلام ، وجعلها فتحا مبينا للمسلمين .

كان قد فر بدينه من مكة ومشركيها ، وخرج ليشيد للإسلام صرحا منيعاً فى « المدينة » بين الأنصار والمهاجرين ، وكان رفيقه فى هذه الرحلة الميمونة أبا بكر الصديق .. هذه الهجرة التى كانت معجزة للإسلام ونبى الإسلام ، ويوما مجيداً ، حفظ قصته الزمن ، ورددت بطولته الأجيال ، بل لقد وقف التاريخ حيال الهجرة معجبا مشدوها ، يتدبر ليفهم آياتها الكبرى ، ويمعن ليدرك أسرارها العجيبة ، وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية .

وأما سراقة فكان فتى من مكة خرج - حين أعلنت قريش عن جائزة قدرها مائة جمل لمن يقبض على محمد وصاحبه - يبحث عن النبى المهاجر ليرده إلى مكة ، حتى ينال الجائزة الموعودة ، وكان سراقة رجلا متين البنيان ، أخبره أعرابى أنه رأى ثلاثة نفر مروا عليه يعتقد أنهم محمد وصاحبه والرائد الذى يدلهما على الطريق ، فلبس سراقة سلاحه ، وامتطى جواده ، وانطلق فى اثرهم يسير بين الصخور والجبال .

وكاد سراقة أن يبلغ الرسول ، حتى لقد سمع قراءته وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، وما هو إلا أن ساخت يدا فرسه فى الأرض ، فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى كاد أن يصل إلى رسول الله وأبى بكر ، وهتف قائلا :

يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وإنى خرجت أطلبك ، واطلب بطلبك المال والمجد والشهرة . وكبا به فرسه مرة اخرى ، فأقامها ، وضرب القداح يستشير الآلهة ، أيستأنف السير ؟ وأشارت عليه الآلهة : أن لا ، ولكنه ركب جواده ، وانطلق فى أثر محمد وصحبه ، حتى أصبحوا منه على مد البصر ، فلكز جواده ، ولكنه كبا به كبوة شديدة ، وألقى به بعيداً ، حتى كان سراقة يقول فيما بعد وهو يقص قصته : لقد شعرت حينئذ أنه قد قدر أن تفوز قضية محمد ، فأقلعت عن فكرة اغتياله ، وهتفت : أنا سراقة ، انظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه ، والتفت محمد وأبو بكر إليه ، فاقترب منهما ، وقص عليهما قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض عليهما سراقة الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئا ، وقالا له اكتم عن الناس خبرنا . وطلب إلى محمد أن يكتب له كتابا يكون آية بينه وبينه ، فأمر أبا بكر أن يكتب له الكتاب .

ويلتفت الرسول صلوات الله عليه إلى سراقة قائلا : كيف بك ياسراقة إذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، ثم يسكت ، ويسكت سراقة متعجبا مشدوها متحيراً . .

ويمضى الركب لطيته ، ويسير محمد وصاحبه ورفيقهما متجهين صوب المدينة ، ويعود سراقة إلى مكة مختفيا عن الأنظار مبهوراً بما رأى وما سمع ؛ ويصل رسول الله إلى المدينة فى الثانى عشر من ربيع الأول — ٢٨ يونيو ٦٢٢ م ، ويستقبل فيها استقبال الأبطال .

(٢)

وتمر الأيام ويموت رسول الله ، ويلى أمور المسلمين بعده أبو بكر ؛ ثم عمر ، وتمتد الفتوحات ، ويمضى جيش المسلمين فى فتح امبراطورية فارس ، وتهزم فارس فى موقعة القادسية عام ١٤ هـ ، ثم ينحدر جيش المسلمين إلى « المدائن » فأخذها وصلى فيها سعد بن أبى وقاص صلاة الفتح ثمانى ركعات ؛ وغنم المسلمون غنائم لاتحصى ؛ وشاهدوا فرسا محملا بذخائر كسرى : حليته ووشاحه ودرعه المحلاة بالجوهر ، فأخذوه ، ثم شاهدوا فرسين آخرين فأخذوهما وكانا يحملان حقائب ؛ فيها تاج كسرى وثيابه المصنوعة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، كما استولى المسلمون كذلك على درع كسرى ومعها درع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع ملك الهند ؛ ومما استولوا عليه تمثال على صورة فرس كله من ذهب وسرجه من فضة وصدره محلى بالياقوت والزمرد وعليه فارس كله من فضة ، وتمثال آخر لناقة من فضة محلاة بالذهب وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر ، وقسم قائد الجيش سعد بن أبى وقاص الغنائم بين المسلمين .

وحمل تاج كسرى وجواهره إلى عمر ، ولما شاهدها عمر قال إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة ، فقال على : لقد عففت فعفت الرعية .

ومن الغنائم بساط لكسرى طوله ستون ذراعا وعرضه مثلها فيه طرق وأنهار وأشجار ورياض ، فبعث به سعد إلى عمر .

(٣)

ولم يلبث عمر أن دعا سراقة بن مالك الكنانى ، فدخل عليه ، فاستدناه منه ؛ وألبسه سوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، وقال له عمر : ارفع يديك وقل الله أكبر الحمد لله الذى سلب السوارين كسرى بن هرمز الذى كان يقول أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة رجلا أعرابيا من مدلج ؛ ورفع عمر صوته ينادى

الناس ؛ ثم أركب سراقة ، وطيف به فى المدينة ، والناس من حوله يحتفلون بهزيمة كسرى ، ويصدقون الرسول الأكرم إظهارا لمعجزة الرسول الأعظم ، الذى بشر سراقة بأنه سيلبس سوارى كسرى ، بشره بذلك وهو مهاجر من مكة إلى المدينـــة ، فار بدينه من مكة ومشركيها ، بشره بذلك والمشركون يكادون يفتكون به ، والرسالة معرضة للخطر ؛ بشره بذلك وهو لا يملك من أسباب الدفاع عن نفسه ورسالته شيئا ، ولا يحلم أحد بأن جيوش الإسلام ستفتح العالم كله فى أقل من قرن من الزمان .

إنها حقا لمعجزة من معجزات نبى الإسلام ، وسر من أسرار الرسالة حققته الأيام ، وما أكثر معجزات محمد رسول الله وآياته الباهرة ، وصدق الله عز وجل حين يقول فى كتابه الحكيم : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ...

إن موكب سراقة فى المدينة موكب خالد ، شهدته الإنسانية وهى تبتسم ابتسامة الجد والفرح ، لسقوط معقل حصين من معاقل الهمجية والوحشية وحكم الاستبداد ، ولسطوع نور الرسالة الجديدة ، رسالة محمد ، رسالة الحرية والإخاء . رسالة العدل والمساواة بين الناس . رسالة التسامح والإنصاف . رسالة الحضارة والمدنية والعلم والعرفان ...

بطل اليرموك

(١)

بطل اليرموك خالد بن الوليد من أشهر القواد الخالدين فى التاريخ ، ولقد سجل بعبقريته الحربية صفحات ناصعة بيضاء لايمكن أن تنسى على مرور الأعوام والأجيال .

إن خالدا قد وضعه جهاده فى الصف الأول من الأبطال فى تاريخ العالم كله ، والعبقريون العسكريون عندما توزن أعمالهم وبطولتهم بميزان صحيح سوف تنهار عظمتهم إذا ماقيسوا بخالد فى بطولته وعظمته .

(٢)

وخالد قرشى مخزومى ، وهو ابن الوليد بن المغيرة ، وكان أبوه سيدا من سادات قريش وأشرافها ، وقد أرخت قريش بوفاته إكبارا له واحتفاء بذكراه .

وكان خالد أحد وجوه قريش وأشرافها ، وكان قائدا محنكا ، شهد مع المشركين أحدا قبل أن يسلم ، وشهد كذلك الحديبية معهم .

وأسلم خالد عام ٨ هـ وكان أخوه الوليد قد أسلم وبعث إليه رسالة يقول له فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . ،فإنى لم أر أعجب من ترهات رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام لا يجهله أحد ، وقد سألنى رسول الله فقال : أين خالد ؟ . فقلت : يأتى الله به ؛ فقال : مثل خالد يجهل الإسلام ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة .. وأسلم فأعز الله به الإسلام والدين .

وشهد مؤتة وفتح مكة ، ووفد فى كثير من الوفادات ، واشترك فى حروب الردة اشتراكا فعالا .

ثم اشترك مع القواد العرب فى الفتوحات الإسلامية ، فضرب أروع الأمثال فى الحنكة والخبرة والتجربة والكفاية العسكرية .

(٣)

اشترك خالد فى الفتوحات الإسلامية فى العراق فى عهد أبى بكر ثم ندبه الخليفة لحروب الشام إبان احتدام المعارك بين الجيوش الإسلامية وجيوش الروم .

وفى عام ١٣ هـ خاض معركة اليرموك ، فكان بطلها العظيم .

كان عدد الجيش الإسلامى حول اليرموك نحو ٢٧ ألفا ، وقدم خالد من العراق فى تسعة آلاف فصار عددهم ستة وثلاثين ألفا ، وقيل كان عدد جيش المسلمين فى اليرموك ٤٠ ألفا ؛ ومهما كان فإن جيش الروم المواجه لهم كان عدده ٢٤٠ ألفا .

وكان المسلمين قبل مجىء خالد إليهم متساندين ، كل أمير على أصحابه لا تجمعهم قيادة واحدة ، وما لبث خالد أن جمعهم وخطب فيهم قائلا : « إن هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هـــذا يوم له مابعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هـذا . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم وقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، إن تأمير بعضكم لاينفع عند الله ولا عندخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلهم ، ودعونى إليكم اليوم » فأمروه .

وسارت الرسل بين المسلمين والروم ، فلم يجد صلح ، وسمع خالد رجلا يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فقال خالد : بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال.

ودارت معركة من المعارك الخالدة فى التاريخ حول اليرموك كان النصر فيها حليف المسلمين وفقدت الروم السيادة على الشام وحرمت من موانى الشام التى كانت تلجأ إليها سفن الأسطول البيزنطى .

وقد وقعت هذه المعركة الفاصلة فى التاريخ فى يوم ١٢ رجب عام ١٣ هـ - ٦٣٤ م ، وكان عدد قتلى الجيش البيزنطى فيها نحو ١٥٠ ألفا .

وفى خلال المعركة كان أبو بكر قد استأثرت به رحمة الله ، وتولى عمر الخلافة ، وبادر عمر فعزل خالدا من إمارة الجيش وولى مكانه أبا عبيدة .

خالد بطل اليرموك الذى أعز الله به الإسلام هو الذى يقول عن نفسه وقد حضرته الوفاة عام ٢١ هـ وهو يبكى : لقيت كذا وكذا زحفا ، ومافى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . .

نهاية امبراطورية

(١)

الامبراطورية الفارسية التي لم تكن تتوقع في يوم من الأيام نهايتها ، قد آذنت اليوم شمسها بالغروب .

إن الأسرة الحاكمة من آل أزد شير بن بابك انتهى بها الأمر إلى يزدجر الثالث الذى توج على الإمبراطورية عام ٦٣٣ م - ١١ هـ ؛ فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان هو آخر ملوك بنى ساسان وكان على يديه نهاية الامبراطورية الفارسية . ففى عهد عمر ساحت الجيوش الإسلامية فى بلاد العراق تفتح مدنه ، وتأخذها من الجيوش الفارسية ، مدينة إثر مدينة ، وهزم الجيش الفارسى بقيادة رستم فى موقعة القادسية عام ١٤هـ - ٦٣٥م هزيمة ساحقة، وقتل رستم فى المعركة ، واستولى المسلمون على العلم الفارسى الأكبر ، وتوالت الفتوحات الإسلامية ، وأخيرا سقطت المدائن عاصمة الفرس ومقر حكم يزدجرد ، ثم كانت موقعة جلولاء وفتح حلوان عام ١٦ هـ ، ثم فتحت الأهواز عام ١٧ هـ ، وكذلك فتحت رامهرز وتستر فى العام نفسه ، وأسر الهرمزان ، فبعث به أبو سبرة القائد الإسلامى أسيرا إلى عمر فى وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ، ومما يذكر أن الهرمزان لما قدم المدينة لبس كسوته من الديباج المذهب ، ولبس تاجه المكلل بالياقوت ، وحليته ، ليراه عمر والمسلمون ، وبحثوا عن الخليفة فلم يجدوه ، ثم وجدوه فى المسجد نائما متوسدا برنسه وكان قد لبسه ليستقبل فيه وفد الكوفة ، فجلس الهرمزان ومن معه وعمر نائم والدرة فى يده ، فقال الهرمزان : أين عمر ، قالوا هاهو ذا ، فقال أين حرسه وحجابه ؟ قالوا : ليس له حرس ولا حجاب ولا كتاب ، قال : فينبغى أن يكون نبيا ، قالوا بل يعمل بعمل الأنبياء ، واستيقظ عمر من شدة صياح الناس فاستوى جالسا ، ثم نظر إلى الهرمزان ، وقال : الحمد لله الذى أذل بالإسلام أعداءه ، ثم أمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبا ، فقال له عمر : ياهرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله ، قال : إنما غلبتمونا بالإسلام ، ثم أسلم الهرمزان ، وأقام فى المدينة ، وكان الذى يترجم بينه وبين عمر هو المغيرة بن شعبة لأنه كان يعرف الفارسية .

(٢)

واستمرت الفتوحات وأقام يزدجرد بمدينته مرو ، وأخذ يستنجد بملوك السند والصين والترك ، ودارت معركة نهاوند وانتهت عام ٢١ هـ بهزيمة الفرس هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وكان العرب يسمونها فتح الفتوح وهزم فيها يزدجرد الثالث بعد أن جاهد جنوده جهاد المستميت ، وقاوموا مقاومة شديدة دون ماجدوى ، وبهزيمة الفرس فى نهاوند سحق الجيش الفارسى ولم يستطع الفرس التجمع بعد ذلك فى معركة حربية ، وانتهت امبراطوريتهم الضخمة ، وملك المسلمون بلادهم .

وأخذ الجيش الإسلامى يزحف على المدن والأمصار فيحتلها دون مقاومة وفتحت خراسان عام ٢٣ هـ وكان يزدجرد قد استنجد بملوك الترك والصين والصغد ، ولكن النصر كان قد ضاع من يديه إلى الأبد ، وجمع أمواله وخزائنه وأراد أن يذهب بها إلى خاقان ملك الترك ، أو إلى ملك الصين ، فقال له وجوه قومه : إن هذا رأى سوء ، ارجع بنا إلى المسلمين فنصالحهم فإنهم أوفياء ، وأهل دين ، فأبى عليهم ذلك ، فقالوا له : دع خزائننا نردها إلى بلادنا ، فأبى ، فاعتزلوه وقاتلوه ، وأخذوا منه الخزائن واستولوا عليها ، وانهزم يزدجرد ولحق بخاقان عابراً النهر من بلخ إلى فرغانة ، وظل يكتب إلى وجوه شعبه يحرضهم على الثورة .

وفى عام ٣١ هـ — ٦٥٢ م قتل يزدجرد الثالث . قتله جماعة من الترك ، وقيل إنه اختفى بطاحون ، وأن الطحان غافله وقتله طمعاً فى الاستيلاء على ملابسه الفاخرة .

وبموته انتهت أحلام الفرس فى استعادة امبراطوريتهم ، وقد عجل بنهاية هذه الامبراطورية : وقوف وجوه الشعب الفارسى ضد يزدجرد رغبة منهم فى السلام بعد أن سئموا الحرب وأفنتهم المعارك ، كذلك مرض يزدجرد ، وتشتت شمل جيشه مما حمله على الفرار من مقاطعة إلى مقاطعة ، حتى ذهب إلى بلاد الترك ، وقيل إنه اختفى فى مرو بخراسان .

انتهت الامبراطورية الفارسية التى كانت تفزع العالم ، وتدك الدول ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

مصـــير الامبراطور

(١)

الامبراطورية البيزنطية فى أيامها الأخيرة بعد ماعمرت نحو ألف سنة ، قواتها العسكرية البرية تنخفض روحها المعنوية انخفاضا شديدا ، وأساطيلها البحرية مهملة إهمالا تاما ، والفتن والثورات تهب عليها من كل جانب ، وملك دولة آل عثمان يهددها بأعظم الأخطار ؛ والعاصمة الجميلة « القسطنطينية » تنتظر بين يوم وآخر نهاية عرش الامبراطور المحتومة .

لقد تحطمت على حصونها هجمات المسلمين البرية والبحرية من قبل .

ولكن جيوش محمد الفاتح وأساطيله اليوم تبدو قوية رهيبة مخيفة قادرة على محو القسطنطينية من الوجود ، وعلى الاستيلاء عليها كذلك .

ولقد ولى السلطان محمد الفاتح عرش الدولة العثمانية بعد موت أبيه السلطان مراد الثانى فى الثالث من فبراير ١٤٥٢ م .

وشعر قسطنطين امبراطور الدولة البيزنطية بالخطر يتهدده من كل جانب بسبب مطامع السلطان محمد الفاتح وفتوته وبعد آماله ورغبته القوية فى الاستيلاء على مدينة قسطنطين الأكبر ، لقد أقسم السلطان ليفتحن هذه العاصمة ، وليس هناك شىء يرده عن عزمه الأكيد فى الجهاد من أجل تحقيق تلك الغاية .

وكان الامبراطور قد بادر فطلب من محمد الفاتح زيادة المرتب الذى يدفعه السلطان للدولة البيزنطية نظير تكفلها بأحد أبناء سليمان بن بايزيد الأول واسمه أرخان ، حتى لا يطلق الامبراطور سراح ذلك الأمير ليطالب بالعرش العثمانى ، ويثير الفتن أمام السلطان ودولته .

وقابل محمد الفاتح ذلك بالتحدى وبالاستعداد الضخم للحرب ، وبناء الحصون على سواحل البحر الأسود والأبيض معا ، وخاصة على ضفاف البوسفور ، فأعد جيشا لجبا عدده نحو ربع المليون ، وأسطولا ضخما معدا بالأسلحة الحديثة والمدفعية القوية .

وفى أوائل إبريل ١٤٥٣ ظهر الجيش العثمانى أمام أسوار القسطنطينية ، واحتل الممر الممتد من بحر مرمرة إلى القرن الذهبي محيطا بأسوار المدينة ، وتجمع الأسطول العثمانى فى « جاليبولى » ثم عبر بحر مرمرة إلى البوسفور وألقى مرساه فيها .

وطلب محمد الفاتح من الامبراطور قسطنطين تسليم المدينة فرفض ، فبدأت المدفعية العثمانية المنصوبة أمام أبراج المدينة تضرب العاصمة البيزنطية المفزعة .

وفى ١٨ إبريل بدأ الهجوم العنيف على أسوار المدينة ، وأخذ الأسطول العثمانى يحاول اقتحام القرن الذهبي ، والقضاء على أساطيل الأعداء ومقاومتهم ، ولما لم تنجح محاولة الأسطول العثمانى فى اقتحام مدخل القرن الذهبي أخذ محمد الفاتح فى ٢٢ إبريل ينقل سفن الأسطول من البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر ، وركز الهجوم على العاصمة المطوقة من البر والبحر حتى أخذت المدينة المنهارة تستعد لطلب التسليم .

طلب البطريرك وعظماء الشعب إلى الامبراطور قسطنطين أن يترك العاصمة نهائيا وأن يذهب إلى مكان آخر ، ولكن الامبراطور رفض .

وفى ١٢ مايو قام الأتراك بهجوم عنيف ، ثم أرسل السلطان رسوله « إسماعيل حمزة اسفنديار اوغلى » لكى يحمل إلى الامبراطور البيزنطى نصيحة السلطان بالتسليم ، إذ لا فائدة من الحرب والاستمرار فيها ، لأن المدينة على وشك السقوط ، وعرض الرسول على الامبراطور أن يخرج الامبراطور من المدينة هو وأهله وحاشيته ومن شاء من أهل المدينة إلى البلوبونيز فى أمان ، يحكم هناك على أن يتعهد السلطان بحماية الباقين ، وبالمحافظة على حياتهم وممتلكاتهم إذا قبل الامبراطور التسليم ، فرفض الامبراطور .

وفى ٢٧ مايو ١٤٥٣ م تشاور محمد الفاتح مع مجلس الحرب الأعلى

وقرروا مواصلة القتال حتى النصر ، وقرر السلطان نهب المدينة ثلاثة أيام للجيش ، واستمر الهجوم بشدة وعنف حتى دخل الجيش العثمانى المدينة ، وقتل الامبراطور فى المعركة .

ودخل محمد الفاتح المدينة من باب القديس رومانوس يمتطى صهوة جواده فى موكب ضخم وسار إلى كنيسة سانت صوفيا ، فأذن من على قبابها للصلاة ، وصارت مسجداً جامعا من أعظم مساجد الإسلام ، وبلغ نبأ الفتح عواصم الإسلام الكبرى ، فبعث ملوكها بالتهنئة وبالرسل ، وساد الذعر أوربا ، وحاول البابا بيوس الثانى جمع شمل أوربا لقتال الأتراك وطردهم من المدينة ولكنه فشل .

وذهب الامبراطور ، كما ذهب غيره من قبل دون أن يستطيع وقف جيش العثمانيين .

وبسقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك بدأ عصر جديد ، فى تاريخ العالم والشعوب .

وأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية العتيدة ، ثم صارت بعد حين حاضرة خلافة الإسلام .

خلفاء بنى أمية فى صفحات التاريخ

(١)

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ — ٦٦١ ميلادية على مقاليد الحكم، وشئون الخلافة الإسلامية، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق فى الشام، وظلت هى العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م .

ودمشق هى مدينة جلق القديمة التى أشار إليها حسان فى شعره :

لله در عصابة نادمتهم   يوما بجلق فى الزمان الأول

ويكاد يكون الإجماع على ذلك[١] .

وسموا دمشق : جلق الخضراء، والغوطة، وذات العماد، ولقبت بالفيحاء، والفيحاء الواسعة من الدور والرياض .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر، وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بنحو ستين ميلا، وتقوم فى نجد فسيح من الأرض، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون فى التوراة، وبجبل الثلج عند قدماء العرب، وهى مدينة سهلية جبلية، وهبة نهرها الخالد « بردى » الذى كان اليونانيون يسمونه « نهر الذهب » .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة، وقد استولى على دمشق فى القديم الآشوريون والبابليون والفرس والفراعنة والأرمن .

واقتحمها اسكندر المقدونى ودخلت فى حكم خلفائه ضمن دولة اليونان، ثم صارت أغلى درة فى الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسى ،

---

(١) ٨ دمشق أحمد كرد، وقيل إن جلق هى كورة غوطة دمشق كلها .

وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت هجرات السلالات والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويدا رويدا ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب والشام وبلاد فارس ومصر .

(٢)

فتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة — ٦٣٦ ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطتها وانتصاره على بنى غسان فى يوم فصحهم ، ورفعه للعقاب راية الرسول فى أعلى الجبل المطل على المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها . فأبو سفيان ابن حرب شيخ بنى أمية وأحد زعماء قريش كان كثيرا ما يفد عليها ، وله حديث طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخارى فى صحيحه.

تولى فتح المدينة كل من أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد ابن أبى سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة ، ونصفها صلحاً ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحا كلها فى العام الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول: سلام عليك يا ديار سوريا سلاما لا لقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بيزنطة على هذه البلاد إلى الأبد .

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبى سفيان ، فلما مات عام ٢١ هـ - ٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن سفيان من قبل عمر بن الخطاب وكان من قبل يلى ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميرا على دمشق عشرين عاما قبل أن يصبح خليفة وقبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بنى أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة الخلافة ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاما أخرى ، بدأت بتنازل الحسن ابن على له عن الخلافة ، وانتهت بوفاة معاوية .

(٣)

تولى مقاليد الخلافة فى دمشق طيلة العصر الأموى ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامى كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويجىء إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر » . . ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، ومجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر ، هم :

١ — معاوية بن سفيان (٤١ - ٦٠ هـ : ٦٦١ - ٦٨٠) .

٢ — يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ : ٦٨٠ - ٦٨٣ م) .

٣ — معاوية بن يزيد (٦٤ - ٦٤ هـ : ٦٨٣ - ٦٨٤ م) .

٤ — مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ ٦٨٤ - ٦٨٥) .

٤ — عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ : ٦٨٥ - ٧٠٥ م) .

٦ — الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م) .

٧ — سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ : ٧١٥ - ٧١٧ م) .

٨ — عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ : ١٠١ هـ - ٧١٧ - ٧١٩ م) .

٩ — يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ : ٧٢٠ - ٧٢٤ م) .

١٠ — هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ : ٧١٤ - ٧٤٣ م) .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤م) .

١٢ — يزيد بن الوليد بن أعبد الملك (١٢٦ - ١٢٦ هـ - ٧٤٤ - ٧٤٤م) .

١٣ — مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ - ١٣٢هـ ٧٤٤ - ٧٥٠م)

هؤلاء خلفاء بنى أمية ، شموس دمشق وملوكها وحكامها طيلة واحد وتسعين عاما هى مدة حكم الأمويين فى العالم الإسلامى .

(٤)

وقد بنى الخلفاء فى دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات ، والقلاع والحصون ، فاتسع عمرانها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطنا رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين

ما صارت به كعبة المسلمين فى كل مكان وأعظم مدن العالم وأجملها ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد ، وأبان العرب - كما يقول جستاف لوبون - عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية ، ودخلوا فى الإسلام أفواجا ، وتعلموا العربية .

(٥)

وكان خلفاء بنى أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التى فتحت عام ٩٢ هـ - ٧١١ م ، وعلى مراكش والجزائر وتونس التى أقام فيها عقبة ابن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ ٦٧٠ م وصارت منذ إنشائها موطنا من مواطن الثقافة الإسلامية ، كما كانت رايتهم تخفق على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب والشام وبلاد العراق وفارس وخراسان وداغستان وأفغانستان ، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣هـ : ٧١٣ م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ ، وأغار الأمويون فى الشام على القسطنطينية عدة مرات ، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط : صقلية ، سردانية ، مالطة ، واحتلوا قبرص وكريت ورودس وهاجموا سواحل إيطاليا ، وغزا فرنسا الحر بن عبد الرحمن عام ٩٩ هـ - ٧١٧ ، واستولى السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها ، وقام عبد الرحمن الغافقى عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ووصل بجيشه الكبير إلى بواتييه قرب باريس ، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقى وجيشه الباسل ، فى يوم الجمعة ٧ من شعبان عام ١١٤ - ٢ أكتوبر ٧٣٢ ، وقتل الغافقى ، وانسحب المسلمون وفى هذه الهزيمة يقول أديب فرنسى مشهور هو مسيو كلودفارير : « فى سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التى نكبت بها الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربى طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه هى الفاجعة التى أريد أن أمقت ذكراها ، وأعنى بها

الانتصار البغيض الذى ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقى ، فنى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ويكفى المرء أن يطوف بفكره فى الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو انقذها الإسلام العمرانى الفلسفى المتسامح السلمى» ... وغزا قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ - ٧٠٦ م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسمرقند والصغد وغيرها ، وتعمق فى بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر وهى أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٧١٥ م - ٩٦ هـ رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام ، ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك فى حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة فى عهد سليمان بن عبد الملك ، ودخلت بلاد النوبة فى حكم المسلمين ، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا.

هـذا هو المجد الإسلامى الأكبر الذى شاده الأمويون ، وتركوه تراثا خالدا من تراث المسلمين الروحى والفكرى ، ولا يمكن أن ننسى عواصم الثقافة والأدب الكبرى فى دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والفسطاط ومكة والمدينة ، والقيروان والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن الإسلامية الكبرى ،التى كافحت من أجل الحضارة والمدنية وتقدم الفكر والثقافة والآداب والفنون، ونشرت راية المعرفة، وحاربت الوثنية والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الهمجية إلى المدنية ومن الوحشية إلى الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة التى سعدت بحكم المسلمين خلال هذه الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامى الأكبر .

(٦)

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى كانت تدار على أحدث نظام فى الإدارة . وكان الخليفة هو المشرف الأعلى على كل الشئون العامة وكان يختار ولاة ينيبهم عنه فى إدارة الولاية والأقاليم والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ — الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ، ويقيم الأمير بالمدينة ،

وكان يضاف إليه أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير .

٢ ـ العراق وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان ويقيم الأمير فى الكوفة بعض السنين وفى البصرة بعضها الآخر ، وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تضاف إلى إمارة العراق أحيانا.

٣ ـ الجزيرة وأرمينية ، وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية .

٤ ـ الشام وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين .

٥ ـ مصر وأفريقية ، وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقية ؛ وكانت أفريقية فى بعض الأحيان تستقل بوال لها عن مصر ، ولما فتحت الأندلس كانت تابعة لأفريقية ، وفى بعض الأحيان كانت تستقل بأمير .

وكان كل أمير يختار كذلك ولاة له على الأقاليم والمدن التى فى إمارته ، ويتمتع بالاستقلال الإدارى فى إمارته ، يقيم الصلاة بنفسه ، وإليه قيادة الجند ، وجباية الخراج ، والقضاء بين الناس .

ومع عسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة بوساطة البريد الذى استعمله معاوية وخلفاؤه .

وفى هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التى لا بد منها لضبط شئون الدولة ، ومن بينها : ديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الخـــاتم .

وقد كانت لغة الدواوين فى الولايات المختلفة بلغاتها ، إلى أن عربت الدواوين فى جميع البلاد الإسلامية ، وصارت اللغة العربية هى لغة جميعها فى شتى الأقاليم والامارات فى العهد الأموى .

الفصل الأخـــير

(١)

هذه دمشق عاصمة خلافة بنى أمية الجميلة ، وهذا عرش مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم يهتز اهتزازا شديدا يكاد ينذر بالخطر ، ويؤذن بانتهاء الدولة .

ومروان الخليفة فى اضطراب فكرى شديد ، وماذا يذكر مروان ويعى فى ذاكرته من أحداث ؟ هل يذكر ما كان يقال عنه من أنه ابن أم ولد كردية كانت لإبراهيم بن الأشتر . فأخذها أبوه يوم قتل إبراهيم حين كان محمد بن مروان واليا على الجزيرة وأرمينية ، أو يذكر يوم ميلاده عام ٧٠ هـ ، هذا الميلاد الذى كان وسط الأعاصير ، أو يذكر موت والده وما لاقى بعده من أحداث ، أو يذكر ولايته للجزيرة وأرمينية وما لاقى فيها من عناء . أو أخذه الخلافة بالسيف من ابن عمه إبراهيم بن الوليد وكيف سار فى جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص وسواها من المدن ، ثم دخوله دمشق وجلوسه على عرش الخلافة الأموية التى كانت فتوحاتها وأيامها منذ بدأت عام ٤١ هـ ، حتى عهد مروان ، غرة فى جبين الدولة الإسلامية ، ماذا يذكر مروان الخليفة وماذا يدع من ذكريات ، وينفض عن قلبه من آلام ؟ — إنها أيام عصيبة مملوءة بالفتن والاضطراب منذ بايعنى الشعب بالخلافة فى المسجد الأموى ، ثم فى قصر الخلافة عام ١٢٧ هـ ، حتى اليوم :

ثورة عبد الله بن جعفر بن جعفر أبى طالب بالكوفة ، وثورة إبراهيم بن محمد بن على العباسى بالشام .

ثم ثورة أهل حمص ، فأهل فلسطين ، فثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فثورة الضحاك بن قيس الشيبانى ، التى لم تنته أحداثها إلا عام ١٣٠ هـ ، ثم ثورة أبى حمزة المختار بن عوف الأزدى .

ومع هذا كله فقد كان النصر معقودا للوائى فى كل هذه الثورات والحروب ، ولكن ثورة اليوم تبدو بوجه كالح عبوس .

إن خراسان التى تجول فيها جيوش الدعوة العباسية وتصول بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، قد شملتها الثورة ، ثم امتدت منها إلى العراق ، وها نحن أولاء فى مطلع شهر جمادى الأولى عام ١٣٢ ﻫ ، وقد بويع بالكوفة لهذا العباسى الثائر الملقب بأبى العباس ، ولا يدرى إلا الله ما المصير .

ليلة حالكة عصيبة قضاها مروان ، مؤرق الجفن ، مسهد العين ، متململا فى فراشه ، وكأنها سنوات متصلة ، لا واحدة وفى آخر الليل أدركته سنة من النوم ، فقام فزعا مضطربا من أحلام مزعجة رهيبة .

وفى الصباح نهض مروان فاستعرض الجيوش ونظم العتاد ، ونصب القواد ، وسار مع الجيش الزاحف حتى عسكر بجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة عام ١٣٢ ﻫ ، ولم يلبث غير قليل حتى وقعت الموقعة العظمى بينه وبين جيش المسودة من العباسيين ، واتصل القتل فى جند مراون ، واستمرت الحرب تسعة أيام انتهت بهزيمة مروان ، وهرب الخليفة إلى الشام فمصر ، وتبعه الجيش العباسى حتى عثر على مروان فى كنيسة فى قرية « بوصير » وقبض عليه ، وقتل لليلتين بقيتا من ذى الحجة عام ١٣٢ ﻫ ، وعقب ذلك تشريد الأمويين والقضاء عليهم فى كل مكان ، وهكذا خلص الملك لبنى العباس .

(٢)

أما أولاد مروان فلا يحدثنا التاريخ عنهم بشىء كثير ، وخاصة ابنه عبد الله ولى عهده ، وقائده فى أكثر المواقع . اللهم إلا مانجده فى تاريخ الطبرى من أنه لما قتل مروان ببلدة بوصير من أعمال الجيزة عام ١٣٣ ﻫ — ٧٥٠ م هرب أبناؤه : عبد الله وعبيد الله إلى أرض الحبشة فلقوا من الأحباش بلاء ، قاتلهم الحبشة فقتلوا عبد الله وأفلت عبيد الله فى عدة ممن معه [١] . ويروى أن

(١) ١٣٤ : ٩ الطبرى ، ويذكر ابن الأثير وابن الوردى أن المقتول هو عبيد الله ﻫ .

عبد الله لما انتهى به الهرب إلى ملك النوبة سأله : لم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم فى كتابكم ؟ فقال : فعل ذلك عبيد لنا وأتباع وأعاجم دخلوا فى ملكنا بغير رأينا . قال : فلم كنتم تركبون على دوابكم بمراكب الذهب والفضة والديباج وقد حرم عليكم ذلك ؟ فأجابه بمثل ما سبق . قال : فلم كنتم إذا خرجتم إلى صيدكم تقحمتم على القرى ، وكلفتم أهلها مالا طاقة لهم به بالضرب الموجع ثم لا يقنعكم ذلك حتى تمشوا فى زروعهم فتفسدوها فى طلب دراج قيمته نصف درهم ، والفساد محرم فى دينكم ؟ فأجابه بمثل ماسبق . فقال له : لا ولكنكم استحللتم ما حرم الله ، وفعلتم ما نهاكم عنه ، وأحببتم الظلم ، وكرهتم العدل . فسلبكم الله عز وجل العز ، وألبسكم الذل ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد ، ثم أبدى تخوفه من أن تعمه معهم ، وأمره بالخروج من عنده قبل ثلاث وإلا قتله .

(٣)

وأما مزنة امرأة مروان بن محمد فقسكت أحاديث الرواة عنها طيلة عهد السفاح والمنصور ، حتى ولى المهدى العباسى الخلافة عام ١٥٨ هـ ، وجلس على عرش خلافة بنى العباس فى بغداد ، واتصل عدله وبره ، وذاع فضله ومعروفه بين النـاس .

وبعد سنوات قلائل من حكم المهدى دخل على حراس قصر الخلافة فى بغداد امرأة مارأى الحراس أجمل منها ، ولا أسوأ حالا كذلك منها ، وعليها ثياب ماتستر ببعضه موضعا من بدنها إلا انكشف موضع آخر ، وإذا هى تسأل الحرس عن جناح الخيزران امرأة الخليفة المهدى ، وتطلب الإذن بالمثول بين يديها وطردها الحرس ، فبكت ووقفت بين يأس الانصراف وأمل المثول بين يدى زوج الخليفة .

ورق قلب أحد الحراس عليها فأوصلها إلى وصيفة الخيزران وفجأة دخلت الوصيفة على الخيزران فى مجلسها من قصر الخلافة ، ومع الخيزران

زينب بنت سليمان بن على الهاشمى العباسى ، فبادرت الخيزران وصيفتها قائلة :

— ماذا وراءك ياميمونة ؟ — ياسيدتى ، سيدة بالباب مارأيت أجمل منها ، ولا أتعس وأشقى حالا من حالها ، تلبس ثوبا مرقعا ماتستتر به جزءاً من جسمها إلا انكشف جزء آخر ، إنها تستأذن على مولاتى — والتفتت الخيزران إلى جليستها زينب بنت سليمان بن على العباس الهاشمى قائلة :

ماترين ؟ .

زينب : لاضير ، تسأل الوصيفةعن اسمها وقصتها ، وتعود اليك ، والرأى بعد ذلك لك .

وصيفة الخيزران : قد والله جهدت ، ومكثت معها وقتا طويلا لعلها أن تبوح لى باسمها وقصتها فما فعلت ، وأرادت الإنصراف فمنعتها .

زينب بنت سليمان : وماذا عليك أن تأذنى لها ، فانك منها بين مكرمة أو ثواب ؟ .

— والتفتت الخيزران إلى وصيفتها ميمونة : إيذنى لها ، لتدخل .

— وذهبت الوصيفة وعادت ومعها امرأة تحكى الخيزرانجمالا وعظمة ، ولكنها فى تعاسة وسوء مظهر وشقاء حال ، ممالا يستطيع البيان التعبير عنه ، ثم سارت على البساط الممدود ، ووقفت حيال الخيزران فى أدب نبيل ، وقالت :

— السلام عليكم .

والتفتت الخيزران متعجبة إليها ، وقالت :

— وعليك السلام ، من تكونين .

— أنا مزنة امرأة مروان بن محمد .

— الخيزران : مزنة ، مزنة امرأة مروان ، لاحياك الله ولا أقر عينك ، الحمد لله الذى أزال نعمتك وعزك ، وصيرك نكالا وعبرة ، أتذكرين ياعدوة الله حين أتاك أهل بيتى يسألنك أن تكلمى الخليفة مروان فى خلافته

ليأمر بإنزال جثمان إبراهيم بن محمد العباسى من الخشبة التى أمر بصلبه عليها ، فتلقيتهم بلقاء خشن ، وطردتهم من بيتك طرداً غير حميد ، الحمد لله الذى أزال نعمتك ونعمة آل مروان وخلافتهم .

مزنة وهى تبتسم فى أدب وحلم وطول أناة ، وثغرها يتلألأ : أى شىء يابنت عم ؟ أى شىء أعجبك من صنع الله عز وجل بى على العقوق ، حتى أردت أن تتأسى بى ، السلام عليكم . وسارت مزنة ، ثم سارت ، وثغرها يبتسم ، وقلبها يبكى .

زينب بنت سليمان للخيزران : نعمة ومكرمة ساقها الله جل جلاله إليك يا سيدتى ، وهدية منه إلينا ، ثم تصنعين معها هذا الصنيع ، والله ياخيزران لايكون إخراجها مما مر بها من شقاء إلا على يدى أنا ، ونهضت زينب وسارت وراء مزنة ، حتى أدركتها فى نهاية جناح الخيزران ، فأمسكت بها ، وإذا الخيزران وراءها تمسك بمزنة ، وتلتفت إليها قائلة : المعذرة يا أختى إلى الله عز وجل وإليك ، فلقد ذكرت حين فوجئت بلقائك ما نالنا من الأحداث فى عهد زوجك مروان ، فكان منى ماوددت أنى لم أفه به ، ولم أملك حينئذ لسانى ، معذرة يا أختى .

وهمت الخيزران أن تعانق مزنة ، فبادرتها مزنة بوضع يدها على صدر الخيزران تبعدها عنها وهى تقول : لاتفعلى ياأختى ، إنى على حال أصونك من الدنو منى بسببها ، إن ثيابى على ماترين ، وجسمى على ماتشاهدين .

وأخذت الخيزران بيد مزنة ، وصاحت بوصيفاتها : ادخلن مع سيدتكن الحمام ، فمضت ومضين معها ، وظلت الخيزران وزينب تنتظرانها حتى تعود .

وبعد ساعة عادت إحدى الوصيفات إلى مولاتها الخيزران وهى تقول : قد خرجت السيدة من الحمام ، وهى الآن واقفة أمامه .

ـــ الخيزران : خذى بيدها إلى الغرفة القريبة لتستريح .

ـــ الخيزران لإحدى الوصائف : احملى إليها هداياى ، واحملى إليها الطيب .

وبعد قليل عادت مزنة وقد لبست الثياب التى أهديت إليها من الملكة

وتطيبت ، فقامت إليها الخيزران ، وقام معها من فى مجلسها ، وأخذت الخيزران ومن معها يعانقنها ، وهى تقول : أما الآن فنعم ، ثم أجلستها الخيزران بجوارها ، وأمرت بالطعام ...

فبادرتها مزنة قائلة . والله ما فيكن أحوج إلى الطعام منى ، فلما حضر الطعام أخذت مزنة تأكل ، وتقدم للخيزران ومن معها من الطعام وكأنها فى منزلها ـ وانتهى الجميع من الطعام ، وأخذن يشربن القهوة ..

وبادرت الخيزران مزنة قائلة :

من لك ياسيدتى ممن تحبين أن نكرمه لأجلك من أبناء أو أقارب أو أهل ؟

مزنة : الحمد لله ، ليس لى أحد من خلق الله تعالى .

الخيزران : إذا فهل لك فى المقام عندنا على أن نخلى لك مقصورة ونحول إليها جميع ما تحتاجين إليه ، ونتمتع بك وبحسن حديثك وقصة حياتك قبل خلافة مروان وبعد خلافته ؟

مزنة : لقد جئت إليك وأنا على أسوأ حال ؛ وإذا كان الله عز وجل قد تفضل على بك وبهذه النعمة فلا أقل من الشكر لله ولك ، أدام الله نعمتك ، فافعلى ما تحبين وما يبدو لك .

فنهضت الخيزران ، ويدها فى يد مزنة ووراءهما الوصيفات والجوارى ، وطافت الخيزران بمزنة فى المقاصير تخيرها وهى تأبى والخيزران تلح ، فاختارت أوسع المقاصير وأحسنها ، فملأتها الخيزران بالجوارى والوصائف والخدم والفرش والملابس والزينة والهدايا . ثم قالت لها : سننصرف عنك الآن ، وهذا منزلك ، وسنتركك حتى تفرغى من تنظيمه ، وسارت الخيزران ومعها زينب بنت سليمان ووراءها جواريها ووصيفاتها ، والتفتت الخيزران إلى زينب قائلة :

ـــ هذه سيدة تعسة الحظ ، قتل زوجها وأبناؤها وأهلها وعضها الفقر

بنا به ، وليس يدخل عليها السرور إلا المال ثم أمرت بأن يحمل إليها خمسة آلاف دينار ومائتا ألف درهم ، وأرسلت إليها تقول لها : هذا المال مالك وتحت تصرفك فضعيه فى خزائنك . أما حياتك ومرتبات خدمك ووصائفك فمن خزينة الخلافة .

وبعد قليل امتلأ القصر بالأصوات العالية ايذانا بقدوم الخليفة المهدى ، ودخل ليستريح فى مقصورته ، وبادرته الخيزران والله ياسيدى عندى لك خبر طريف .

ــ المهدى : ماهو ؟ ،

الخيزران : إنه أعجب ماسمعت ، وأخذت تقص عليه القصة ، وهو يتعجب ، ويقول كيف بدأتها بهذا العنف ، أهذا مقدار شكرك لربك عز وجل ، وقد أمكنك من عدوك وأظفرك به على هذه الحال التى تصفينها ، والله لولا مكانك منى لحلفت أن لاأكلمك أبدا .

وصاح المهدى فى الخدم ومعه صرة فيها عشرة آلاف دينار ومائتا الف درهم ، فحضرت وصيفة من وصائف الخيزران ، فقال لها الخليفة : ناولى هذه الصرة لسيدتك مزنة وأبلغيها سلامى وقولى لها لولا خوفى أن تحتشم منى لصرت إليها مسلما ، ومخبرا إياهابسرورى بها ، وقولى لها : الخليفة يقول لك إنه أخوك وجميع ما ينفذ فيه أمره فأمرك أنفذ فيه ، وسارت الوصيفة فأبلغت سيدتها مزنة كل ماسمعته من الخليفة .

فبادرت مزنة إلى المهدى ؛ ومثلت بين يديه ، فلقيها الخليفة أحسن لقاء ، وأقامت فى مجلسه ساعة تحدثه بقصتها ، ثم انصرفت إلى مقصورتها .

ترى لو أمكن أن أقص عليك أيها القارىء قصة مزنة من بدئها لختامها ، كما خرجت من فمها للخيزران وللمهدى ، ماذا كنت تقول ؟

لقد كانت حياة مزنة نهاية دولة . وخاتمة عرش ، وكانت قصتها الفصل الأخير فى مسرحية خلافة بنى أمية .

من التاريخ الثقافى والأدبى الإسلام

فى عصر بنى أمية

(١)

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربى والثقافة الإسلامية حيثما تسير الفتوحات الإسلامية ، فحيثما يفتح المسلمون البلاد ، تقيم فيها حاميات من جند المسلمين ، وعلى هذه الحاميات قواد من العرب ، وبجانب الجيش أمراء يحكمون هذه البلاد ، وغالباً ما يكونون هم أمراء الجيوش ، وبجانبهم تنزل القبائل العربية المهاجرة تتكلم اللغة العربية ، وتذيع الأدب العربى ، وتأخذ لهجتها ولغتها العربية فى الذيوع بين سكان البلاد الأصليين ببواعث الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة ، ويقبل من يدخلون فى الإسلام من أهل البلاد الصميمين على تعلم لغة العرب ، والتأدب بآدابهم ،وحفظ أشعارهم ، وتعلم علومهم ، ومن ثم انتشرت اللغة وذاع الأدب فى كثير من البلاد المفتوحة ، وقامت مواطن الأدب فى المملكة الاسلامية المترامية الأطراف التى كانت تستظل بظل الأمويين ، وتتجه إليهم فى كل مناسبة ، وإلى عاصمتهم الكبرى دمشق عاصمة الإسلام ، وحاضرة خلافة المسلمين إبان حكم الأمويين .

(٢)

ومن الجدير بالذكر أن نقول : إن بيئة الحجاز شاع فيها الغناء وخاصة مكة والمدينة ، ولعل السبب فى ذلك كثرة أبناء الموالى فى الحجاز وكثرة الترف فى مدن الحجاز ، وكثرة الفراغ كذلك وظرف الحجازيين ورقتهم ، ويروى أنه كان لمغنى مكة مذهب فى الغناء ، ولمغنى المدينة مذهب كذلك ، وكان بين الفريقين مفاخرات .

واشتهرت بيئة الحجاز الأدبية بالغزل القصصى والعذرى ، وقل هنا الهجاء والمدح ، وكان من شعراء مكة : عمر والعرجى وابن قيس الرقيات وأبو العباس الأعمى ، كما اشتهر فى المدينة الأحوص وإسماعيل بن يسار وإخوته ، وعبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم .

واشتهرت بوادى الحجاز ومثلها نجد بالغزل العذرى . .

وكانت الحجاز مهد المهاجرين والأنصار ، ورجال قريش وأشراف العرب وموطن الصحابة وسادة المسلمين ، وفيها زعماء البيت العلوى : الحسن والحسين وأبناء الخلفاء من أمثال عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن أبى بكر ، وفيها أمثال عبد الله بن الزبير وسواهم من الطامحين فى الخلافة والمناوئين للأمويين . وقد استعمل الأمويون مع المعارضة فى الحجاز سوط الرهبة والفزع ، ونذروا الأموال الضخمة ، فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين فى عهد عمر خمسة آلاف درهم فى العام صار عطاء كل منهما فى عهد معاوية ألف ألف درهم .

وقد قضى يزيد على ثورة الحسين بمنتهى الشدة عام ٦١ ﻫ — ٦٨١ م ، وقتل الحسين فى كربلاء من أرض العراق . واستباح يزيد حرمة المدينة وبطش بزعمائها فى موقعة الحرة المشهورة .

وحكم عبد الله بن الزبير الحجاز تسعة أعوام نودى فيها بلقب الخلافة ، وذلك من عام ٦٤ ﻫ — ٦٨٤ م حتى ٧٣ — ﻫ ٦٩٢ م وحاصره الحجاج فى مكة ورمى الكعبة بالمنجيق وسلم ابن الزبير نفسه وقتل هو وأنصاره ، وكان له فضل كبير فى تعمير الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عام ٦٥ ﻫ .

وكانت مجامع المدينة أرقى المجامع الثقافية فى العالم الإسلامى وأحفلها بالشعر الغنائى ، وكانت لها شهرة بالترف والغناء واللهو المباح .

أما بيئة العراق فقد ذاعت شهرتها بالشعر السياسى وكثرت فيها الأحزاب السياسية وثورات المعارضة التى قضى عليها الأميران : زياد بن أبى سفيان المتوفى عام ٥٣ ﻫ — ٦٧٣ م ، والحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى عام ٩٣ﻫ — ٧١٢م ، بمنتهى الشدة والقسوة والبطش .

أما الشام فكانت مقر الخلافة ومستقر الحزب الأموى الحاكم وأعوانه وجيوشه الجرارة من جند الشام .

وأما مصر فكان النفوذ فيها للبيت الأموى ، وتنازعها عبد الله بن الزبير

ومروان بن الحكم، ولكنها خلصت للأمويين وحدهم بعد قليل .

وقد امتازت العراق بنشاط الأحزاب السياسية فيه ، وكثرة الفرق الدينية ، واشتهرت مجامع العراق بالتبريز فى علوم اللغة ، وذلك :

١ — لشدة الاحتياج إليها فى العراق لفساد الملكات فيه بالاختلاط وكثرة عناصر الموالى بين ربوعه .

٢ — تعددالعناصر والثقافات والأفكار والأجناس فىالعراق وامتزاجها .

٣ — كان العراق موطن السريانية ، وكان للسريان قواعد فى منظمة اللغة والنحو .

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة فى الأدب والعلم ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها فى العمران ، ولقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .

أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بعلوم الشعر وروايته .

ومن أشهر مجامع الأدب والشعر فى العراق : مربد البصرة ، وكناسة الكوفة .

(٣)

وكانت أهم مواطن الأدب والثقافة فى عصر بنى أمية هى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط :

١ — أما مكة : فهى البلد الحرام ، مولد رسول الله ، ومهبط الوحى ولما فتحها الرسول خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها ، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علما وحلماً ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وممن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وابن عمر ومات عام ١٨ ﻫ فى الشام .

ولما خرج معاذ إلى الشام قال عمر : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه والفتيا « طبقات ابن سعد ، مجلد ٣ ».

ومن علماء مكة : عبد الله بن عباس ، وكان يجلس في البيت الحرام ، يعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، وهو وتلامذته يرجع إليهم الفضل في شهرة مكة العلمية ، وتوفى عام ٦٨٨ م .

ومن علمائها : عطاء بن أبي رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن جبير ، وثلاثتهم من الموالي ومن التابعين ،

وكذلك كان من علمائها من التابعين ومن الموالي من الطبقة الخامسة بها : سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجي وكانا من أساتذة الشافعي الذي ولد في غزة ، وحملته أمه صغيرا إلى مكة ، فتعلم الأدب في باديتها ، وحفظ الشعر ، وتعلم العربية ، ونشأ في مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم دراسته فيها .

وكانت المجالس الأدبية كثيرة في مكة بين الشعراء ، ولا سيما في مواسم الحج ، كما كانت تعقد في المسجد الحرام ، روى المبرد في كاملة[1] أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين موردين ، حتى دخل فجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا فأنشده رائيته المشهورة التي فتح بها عمر صفحة جديدة في تاريخ الغزل ، ونقله من مظهره التقليدي إلى لون قصصي جديد كل الجدة عد عمر زعيمه وأبا نشأته ، وأخذ عمر ينشد :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح متهجر ؟

حتى أتى على آخرها ، فأقبل نافع على ابن عباس ، وقال له : يا ابن عباس إنا نضرب إليك أكباد الإبل . نسأل عن الحلال والحرام ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

---

(١) ١٤٤ و ١٤٥ جـ ٢ الكامل .

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت (فيخزى) ، وأما بالعشى (فيخسر)

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

فقال له نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال أجل بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت ، قال فإنى أشاء ، فأنشده القصيدة كلها .

٢ — وأما المدينة : فكانت لها شهرتها الأدبية، وذوقها الحساس، ونقدها اللماح ، من لدن الجاهلية — حتى كان النابغة يقول : « دخلت المدينة وفى شعرى عهدة ، وخرجت منها وأنا أشعر الناس». وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وكان له شعراء ينافحون عن دعوته ، ويذودون عن رسالته، وعلى رأسهم حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت يا أبا حمزة قال وأنا . وابن سلام الجمحى حين يتحدث عن شعراء القرى العربية (مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين) يقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة .

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر فى هجاء قريش خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : قل وروح القدس معك ، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام فى غبش الظلام.. ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان، وهو ينشد شعره فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان دعنى من هذا يا عمر ، فوالله لقد كنت أنشد فى هذا المكان من هو خير منك فلا يغير على شيئا .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة تحمل دائما لواء المعارضة للحاكمين ، وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنابز وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان

يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلحق زيادا ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم فى المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون منه ما يعيبون من رديئه ، ويستحسنون من جيده . يروى أن عمر بن أبي ربيعة قدم المدينة ، فاجتمع به الأحوص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا فى ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرنى يا هذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشتد فى أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر(١)

أراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت الهجر إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع .. ألا قلت كما قال الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لا بد أن سيزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير

فانكسرت نخوة عمر ودخلت الأحوص الخيلاء . فأقبل كثير على الأحوص وقال له : لقد أبطل آخرك أولك ، أخبرنى عن قولك :

فان تصلى أصلك وإن تبينى بهجر بعد وصلك لا أبالى

أما الله لو كنت حرا لباليت ولو كسر أنفك . ألا قلت كما قال نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة ، فلما رأى أن الكبرياء قد دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرنى عن قولك :

(١) اسبطرت : أسرعت . تشتد : تعدو .

أهيم بدعد ما حييت فان أمت   فوا كبدى من ذا يهيم بعدى ؟[١]

أهمك ويحك من يهيم بها بعدك ؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر ، فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرنى عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة   بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب[٢]

كلانا به عر فمن يرنا يقل   على حسنها جرباء تعدى وأجرب[٣]

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله   علينا فما ننفك نرمى ونضرب

وددت وبيت الله أنك بكرة   هجان ، وأنى مصعب ثم نهرب[٤]

تكون بغيرى ذى غنى فيضيعنا   فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يبالون من سطوة حاكم ولا يرهبون قوة ظالم ، وبالنقاد الذين ينقدون فيحسنون . . ومن هنا كانت عينا ثرة بالشعر ، ومنبعا فياضا بالأدب ، لا يغيض ماؤه ، ولا يحول رواؤه .

وكانت المدينة من أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة ، فقد هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بها أكبر تعاليم الإسلام ، وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه ، وكان بها كثير

(١) أنشد البيت فى مجلس عبد الملك فنقده وقال : الجيد أن يقول :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت   فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

(٢) نعزب : نبعد فى المرعى .

(٣) العر بالضم والفتح : الجرب .

(٤) البكرة الناقة الفتية ، ناقة هجان بيضاء اللون كريمة . المصعب الفحل الذى يترك فلا يركب .

من الموالى الذين أتى بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت[1] ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ، ثم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) من التابعين ، ومن عندهم كان الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور .

ومن علمائها صالح بن كيسان وكان يؤدب عمر بن عبد العزيز ابن مروان. ومن علمائها كذلك : ابن شهاب الزهرى القرشى (٥١ - ١٢٤ هـ) .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة فى المسائل الدينية بل نبع فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن إسحاق والواقدى[2] ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسير والمغازى ، « وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة فى عهد الراشدين ومجتمع الموالى الذين سبوا من مختلف البلاد الإسلامية وأغلبهم من عناصر متحضرة . وممن برعوا فى النادرة والفكاهة فى المدينة الغاضرى وأشعب ، وفى الغناء معبد .

٣ — وأما البصرة والكوفة : فهما أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شهير من قديم بالحضارة ! تداولت عليه أمم كثيرة متمدنة وتركت فيه آثارها العلمية والفنية ، وهو إلى ذلك قطر غنى خصب كثرت مياهه وخيراته ، وقد أسست هاتان المدينتان فى عهد عمر بن الخطاب[3] ونزل بهما كثير من الصحابة

---

(١) يروى أنه ما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحدا فى القضاء والفتيا والفرائض والقراءات ، وظل كذلك فى عهد على ومعاوية وتوفى عام ٤٥ هـ ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء .

(٢) توفى عام ١٠٧ هـ وله « أخبار مكة » و « فتوح الشام » .

(٣) اختطت البصرة عام ١٤ هـ ، ولم تعمر إلا عام ١٧ هـ ، واختطت الكوفة فى هذا العام ١٧ هـ .

واختلط فيها العرب بالموالى بالتزاوج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان فى الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة وشريح والشعبى وسعيد بن جبير من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان إمام المذهب المنسوب إليه ، واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعرى م ١١٠ هـ وأنس بن مالك من الصحابة م ٩٢ هـ ، ثم الحسن البصرى م ٧٠ هـ وابن سيرين م ١١٠ هـ من التابعين ، واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ فى علوم النحو واللغة ، وتفوقت البصرة فى ذلك ، فكان من علمائها أبو عمرو ابن العلاء . والخليل بن أحمد ، والأصمعى . واشتهر من الكوفيين الكسائى ، وكان بين المدينتين تنافس فى اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام . ولكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكبر إيثارا للسماع ، وكان يعيش فى البصرة الفرزدق وجرير وفى الكوفة الكميت بن زيد الأسدى وذو الرمة .

٤ — وأما الفسطاط : فكانت فى مقدمة المدن الإسلامية التى ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية واختطت عام ٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لهيعة ٩٦ - ١٦٠ هـ وهو من أكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية فى فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) أحد الأئمة الذين يقرنون بمالك وأبى حنيفة لولا أن تلاميذه أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعى ودرس فيهاووضع مذهبه الجديد. ومن علمائها كذلك نافع م ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء : جميل وكثير ونصيب والرقيات وأيمن بن خزيم وأقام فيها أبو العيال الهذلى م ٤٦ هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر فى ظلال الحكم الإسلامى عام ٢٠ هـ - ٦٤٠ م بفضل عمرو بن العاص ٤٧ ق هـ - ٤٣ هـ ٦٦٣ م « وقد فرغ ابنه عبد الله بن عمرو

ابن العاص (٣٦ ق هـ - ٦٨ هـ : ٦٨٨ م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثيرون ، وهاجر كذلك إليها الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً اثنان منهم وليا الحكم مرتين وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائبا عن ابن الزبير ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان خمسة من هؤلاء من بيت بنى أمية ، ومنهم : عبد العزيز بن مروان ((٦٥ - ٨٦ هـ) وعبد الله بن عبد الملك الذى وليها عام ٨٦ - ٧٠٥ م وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمرا باستعمال اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تعلم العربية ، وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجا . وفى عام ٨٦ هـ حولت دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبد الملك بن مروان الذى ولى مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمى القيسى قبل عام ١٠٩ هـ .

ومن علماء مصر فى هذا العهد : أبو عبيدة المغافرى ، ونافع المتوفى عام ١٢٠ هـ ، وقد بعثه عمر بن عبدالعزيز ليعلم أهلها السنن ، وعبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى عام ٦٨ هـ ٦٨٨ م ، والليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) وابن لهيعة (٩٦ - ١٦٠ هـ) .

ووفد على مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان : نصيب وجميل والليث وكثير وابن قيس الرقيات وأيمن بن خزيم .

٥ — وأما دمشق : فهى عاصمة الأمويين ومنارة العلم والثقافة والأدب ومقصد الناس من كل حدب وصوب ، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة رغبة فى المعرفة ، أو حرصا على مال الخلفاء والأمراء .

وممن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقي .
وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحي الشام وتوفي عام ٨٩ هـ .
وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو .
وكان عدي بن الرقاع يعيش في الشام .
وكان في الشام : معاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي ورجاء بن حيوة وسواهم .
وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامي بعد أن كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية .

(٤)

مصـــادر البحث :
دائرة المعارف الإسلامية في الكلام على : مصر — الفسطاط — البصرة — الكوفة — الشام — دمشق — الخ .
معجم البلدان لياقوت — خطط المقريزي .
عيون الأخبار لابن قتيبة .
العقدالفريد لابن عبد ربه .
وفيات الأعيان لابن خلكان
شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
فجر الإسلام الجزء الأول . .
الحضارة الإسلامية لكرد علي — النقائض
الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام — قصة الأدب في مصر
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الثاني للشيخ محمد الخضري
أخبار مكة للأزرقي .
مروج الذهب للمسعودي — خطط الكوفة لماسينيون .
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي بتعليق الخفاجي وعبد الله عبد الجبار وسواهما .
قصة الأدب في الحجاز لعبد الله عبد الجبار والخفاجي .

البصرة وسوق المربد

(١)

لمربد[١] البصرة أثر غير قليل فى اللغة والأدب والشعر فى العصر الأموى، ولا بأس بالإطالة هنا فى حديثه .

هو ضاحية من ضواحى البصرة ، فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقا عامة ، قال الأصمعى : « المربد كل شىء حبست به الإبل والغنم . وبه سمى مربد البصرة[٢] ، وإنما كان موضع سوق الإبل وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج

---

(١) هو على وزن منبر ومقود من ربد بالمكان إذا أقام فيه ، وفى الحديث أن موضع مسجد رسول الله كان مربدا ليتيمين فى حجر معاذ بن عفراء فجعله للمسلمين فبناه الرسول مسجداً ، وفى شعر الفرزدق :

عشية سال المربدان كلاهما   عجاجة موت بالسيوف والصوارم

ثناه مجازا لما يتصل به من مجاوره ، وقد يجوز أن يكون سمى كل واحد من جانبيه مربدا ، وقال الجوهرى : عنى به سكة المربد بالبصرة ، والسكة التى تليها من ناحية بنى تميم ، جعلهما المربدين ، كما يقال الأحوصان وهما الأحوص وعوف بن الأحوص .. هذا نص تفسير البيت من اللسان ص ١٥١ ج ٤ ويلاحظ أن فى العبارة خطأ مطبعيا فى أول سطر من الصفحة المذكورة ، حيث وردت العبارة هكذا : سماه ، وصحتها : ثناه .

(٢) ١٥٠ و ١٥١ ج ٤ لسان العرب ، ومربد الإبل : محبسها ، وقال ابن الأعرابى وأبو عبيدة : المربد فضاء وراء البيوت يرتفق به ، ومربد التمر جرينه الذى يوضع فيه (راجع ص ١٥١ ج ٤ لسان العرب) وهو الأندر بلغة أهل الشام ، والبيدر بلغة أهل العراق (١٥١ ج ٤ لسان العرب) وأهل المدينة يسمون الموضع الذى يجفف فيه التمر مربدا وهو المسطح والجرين فى لغة أهل نجد (١٥١ ج ٤ اللسان ، و ٢٢٦ ج ١ صحاح الجوهرى) وهو الجرن بلغة أهل مصر .

من البصرة إليها . ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه[1] .

وفى اللسان — فى مادة ب ص ر — وقال ابن شميل : البصرة أرض كأنها جبل من جص وهى التى بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بها ، فكأن المربد كان موجوداً فى الجاهلية .

وأخبار المربد فى الجاهلية معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك ، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق ، وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة » . وقد كان المربد فى الإسلام ـ كما يقول أحمد أمين ـ صورة معدلة لعكاظ الذى كان سوقاً للتجارة ، وكان سوقاً للدعوات السياسية ، وكان سوقاً للآداب ـ جاء فى كتاب « ما يعول عليه » : المربد كل موضع حبست فيه الإبل . ومنه سمى مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه ـ كان مجتمع العرب من الأقطار ، يتناشدون فيه الأشعار : ويبيعون ويشترون وهو « كسوق عكاظ » وقال العينى : « مربد البصرة . محلة عظيمة فيها (أى فى البصرة) من جهة البرية ، كان يجتمع العرب فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون .

كانت أهم أخبار المربد ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهى المطالبة بدم عثمان وكان معها طلحة والزبير ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليها من قبل دعوتها ، وخرج إلى المربد كذلك عامل على على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى الحجاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضاق

(١) أحمد أمين ـ مجلة الثقافة المصرية .

المربد بمن فيه . وأصبح المربد مجالا للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . وأصحاب عائشة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ، ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ويعظم ما جنى عليه ويدعو إلى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ويقولون : صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلا حق لهما فى الخروج عليه ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله . وهكذا انتقل المربد إلى مجمع حافل كبير.

(٢)

وكان العصر الأموى أزهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة جاء فى الطبرى : « أن عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجية وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها » وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية : من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن ، فالفرزدق يقف فى المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية ، حكى فى النقائض أن « زياد بن أبى سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل : لشد ما عقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل ، فحلها ثم أنهبها ، وقال : من

أخذ شيئا فهو له وبلغ ذلك زياداً فبالغ فى طلبه فهرب . فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد .

وأراد عرب البصرة أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم فى سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصبية الجاهلية وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ، ورأينا المربد فى العصر الأموى يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف المربد أجل شعر أموى من هذا النوع ، فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من آثار المربد ، قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغانى أن جريرا والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصا ويخرج إلى المربد ويقول قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون إلى كل منهما ماقاله الآخر فيرد عليه . قال أبو عبيدة : « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما ، وركب فرسا أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما ، فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية[1]   وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جرير أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

---

(١) هى الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب وهو رجل كان يصنع الدروع .

لبست سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج[1] وجلاجله[2]

ومازالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتاب الله تهديم دارنا بتهديم ماخور خبيث مداخله

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ، جاء فى الأغانى : « وكان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة .

وكان الناس يخرجون كل يوم إلى المربد ، يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه ينتظر شاعره ، فقد روى الأغانى أيضا أن جريراً بات يشرب باطية من نبيذ ويهمهم بالشعر وهجاء الفرزدق والراعى فما زال كذلك حتى كان السحر وقد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير فــلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبر ، ثم أصبح حتى عرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمربد ، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق ، فلبس ولف رأسه ودعا غلامه فأسرج له حصانا وقصد مجلسهم وأنشدها فنكس الفرزدق وراعى الإبل .

ونرى بجانب هؤلاء الفحول أعنى جريرا والفرزدق والأخطل طائفة أخرى من كبار الرجاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم ، فالعجاج الراجز يخرج إلى المربد عليه جبة خز وعمامة خز ، على ناقة له قد أجاد رحلها ، ويقف بالمربد على الناس مجتمعين ، يقول رجزه المشهور :

---

(١) هو مايتخذ من الدمى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لا أصل له فى العربية .

(٢) ١٣٢ ج ٤ الاغانى

« قد جبر الدين الإله فجبر »

ويهجو شاعر ربيعة فيأتى رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج أبو النجم إلى المربد ويقول رجزه :

« تذكر القلب وجهلا ماذكر »

ورؤبة الرجاز ينشد رجزه :

« وقاتم الأعماق خاوى المخترق »

ويجمع حوله فتيان تميم فيرد عليه أبو النجم فى رجزه :

« إذا اصطبحت أربعا عرفتنى »

كذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وينشد ودموعه تجرى على لحيته :

« ما بال عينك منها الماء ينسكب »

وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقدا شديدا ويسخف بعض تشبيهاته ، فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب إلى المربد حتى يموت الخياط .

والأمراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء وقد يهيجون بعضهم على بعض خدمة لأغراض حزبية أو سياسية فعبد الملك بن مروان يأمر أبا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق ؛ وعباد بن حصين يعين جريرا على الفرزدق ويعير جريرا الدرع والفرس والسلاح .

وهكذا كان المربد فى العهد الأموى معهدا كبيرا أنتج أدبا غزيرا من جنس خاص . وكان هذا الشعر امتدادا للشعر الجاهلى ، لاتحاد الأسباب والبواعث ، فاما الشعر الغزلى كشعر ابن أبي ربيعة وأمثاله فليس له كبير أثر فى المربد لأنه غير المهاجاة والمفاخرة . وليس مجاله حياة المربد التى عرفناها .

وبقى المربد حتى دمره الزنج فى ثورتهم التى بدأت عام ٢٥٥ هـ ... بقى المربد فى العصر العباسى . ولكنه كان يؤدى غرضا آخر غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى .

ومما يروى عن الفرزدق فى المربد ماحدث به الأصمعى قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول :

لقيت الفرزدق فى المربد ، فقلت : يا أبافراس ، أحدثت شيئا ؟ فقال : خذ ثم أنشدنى :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

فقلت : سبحان الله ، هذا للمتلمس ، فقال : اكتمها فلضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبل .

ولا شك أن المربد كان له أثر فعال فى الأدب الأموى ، هذا الأدب الذى تأثر بعوامل عديدة منها :

١ ـ انتقال الخلافة من المدينة إلى ملك عضوض عاصمته دمشق بالشام .
٢ ـ الصبغة العربية للدولة .
٣ ـ سياسة الدولة .
٤ ـ قيام العصبيات والأحزاب وكثرة الخلاف بين المسلمين .
٥ ـ مجالس النقد والمناظرة ، والنوادى الأدبية العديدة التى قامت فى هذا العصر ، ومنها الأسواق .
٦ ـ قيام الشعوبية .
٧ ـ انتشار اللغة العربية فى أنحاء العالم .
٨ ـ عناية الخلفاء والأمراء بالأدب .

كما كان لسوق المربد أثره الكبير فى الشعر الأموى وفى بعث العناية به ، حتى لقد لقى الشعر الأموى عناية كبيرة : من الحكام خلفاء وأمراء وولاة ،

بل كانوا يرسلون وفودهم أحيانا إلى الشعراء التماسا لمدائحهم ، وقد أغدقوا على الشعراء العطاء ، وعقدوا له المجالس الحافلة لإنشاده وسماعه ، واتخذ كل خليفة أو وال لنفسه شاعرا واتخذ كل حزب له شعراء .

كما لقى الشعر عناية من المجتمع العربى الذى كان فى ذلك الحين يحل الشعر منه منزلة رفيعة ، ولقى نفس العناية كذلك من المغنين ، كما لقى عناية فائقة من الشعراء الذين أقبلوا على تهذيبه وتجويده .

وترجع أسباب هذه العناية إلى العصبيات القبلية والسياسية التى كانت عاملا فى رواج الشعر والعناية به ، وإلى اهتمام الرواة بالشعر مما جعل سوقه رائجة ، ودعا الشعراء إلى تجويده ، وإلى التنافس بين الشعراء كذلك ، وإلى أثر الشعر فى الحياة الاجتماعية ، واتخاذ الشعر أداة للغناء ، وإلى أن الحكام جلهم عرب ومنهم الشعراء والنقاد .

ويسمى شعراء بنى أمية بالإسلاميين ، وهؤلاء الشعراء الإسلاميون كانت عصبية الرواة عليهم ظاهرة ، فقد كانوا لا يعترفون لهم بجودة ولا إحسان ويعدون الشعر ما كان لامرىء القيس والنابغة وزهير الأعشى وأمثالهم من شعراء الجاهلية ، ويقول أبو عمرو ابن العلاء فى جرير : « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت بروايته » .

وقد ظهر أثر العوامل الجديدة فى شعر هؤلاء الشعراء الإسلاميين واضحة . ومن أهم المؤثرات فى شعرهم : القرآن الكريم والحديث النبوى ، ثم الشعر الجاهلى ، وامتزاج العرب بالعناصر والثقافات الأجنبية ، ثم الترف والحضارة .

وقد اختلفت نزعات هؤلاء الشعراء الإسلاميين اختلافا واضحا : فهناك نزعة جاهلية ، ونزعة حضرية رقيقة ، ونزعة خاصة بالشعراء الموالى من أمثال نصيب وعبد بنى الحسحاس ، وينتميان إلى أصول حبشية ، والحيقطان وهو من أصل زنجى ، وأبى نخيلة وزياد الأعجم وموسى شهوات وإسماعيل بن يسار المتوفى عام ١١٠ هـ وهم من أصول فارسية .

وقد اختلف الشعر اختلافا واضحاً فى أغراضه : فمن أغراض قديمة تناولها الشعراء الأمويون متأثرين بما جد من مظاهر الحضارة وأحوال السياسة ، كالفخر والمدح والهجاء والرثاء والوصف والاعتذار والغزل التقليدى والحماسة .

ومن أغراض جديدة نشأت فى هذا العصر بتأثير الاتجاهات الجديدة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية والأدبية ، ومن بينها الشعر السياسى وشعر الشعوبية والغزل العذرى والغزل القصصى ووصف البلاد المفتوحة وشعر الزهد والعقائد .

ومهما كان فقد كان الشعر فى عصر بنى أمية فى نهضة فنية شاملة تناولت بناءه ومعانيه وأخيلته وأساليبه وألفاظه بالتجديد والتطور .

وكل هذه التطورات الجديدة كان من بعض أسبابها قيام سوق المربد وكناسة الكوفة بنشاطها الأدبى الكبير .

العلاقات السياسية والثقافية

بين الخلافة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية

فى القرن التاسع الميلادى

(١)

شهد القرن التاسع الميلادى (٨٠٠ — ٩٠٠ م : ١١ من ذى الحجة ١٨٤ — ٦ من المحرم ٢٨٨ ﻫ) نهضة إسلامية جديدة ، رفعت لواءها الخلافة العباسية ، التى كان لها النفوذ الروحى والسياسى فى العالم الإسلامى .

وشاهدت بغداد عاصمة الخلافة فى هذا القرن عظمة عرش : الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ ﻫ : ٨٧٦ — ٨٠٩ م) ، والمأمون (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ : ٨١٣ — ٨٣٣ م) ، والمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ ﻫ : ٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، والمتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ ﻫ : ٨٤٧ - ٨٦١ م) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ ﻫ : ٨٩٢ - ٩٠٢ م) ، كما عاشت فى دولة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ ﻫ : ٨٠٩ - ٨١٣ م) ، والواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ ﻫ : ٨٤٢ - ٨٤٧ م) ، والمنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ ﻫ : ٨٦١ - ٨٦٢ م) ، والمستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ ﻫ : ٨٦٢ - ٨٦٦ م) ، والمعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ ﻫ : ٨٦٦ - ٨٦٩ م) ، والمهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ ﻫ : ٨٦٩ - ٨٧٠ م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ ﻫ : ٨٧٠ - ٨٩٢ م) .

وفى هذا القرن كان يحكم الامبراطورية البيزنطية الأباطرة : نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) ، وميشيل الأول (٨١١ - ٨١٣ م) ، وليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠ م) ، وميشيل الثانى (٨٢٠ - ٨٢٩ م) ، وتيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) ، وميشيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧ م) ، وباسل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م) وليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) ، وكان هؤلاء الأباطرة يعدون أنفسهم حماة مجد الدولة الرومانية الكبرى ، والممثلين الحقيقيين لتراث المسيحية ، وإن نازعهم الامبراطور شرلمان فى غرب أوربا هذا الشرف ، وخاصة بعد أن توج عام ٨٠٠ م امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

(٢)

ويعد هذا العصر من أزهى عصور الإسلام ، وصفحاته المشرقة التى هى من

أنصع الصفحات فى التاريخ السياسى والفكرى والأدب للعرب والمسلمين ، وقد امتد نفوذ العباسيين فيه من شواطىء المحيط الأطلسى إلى حدود الهند والصين ، وارتفعت راياتهم فى الآفاق تأوى إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون ، وتقوم المدارس ، وتنشأ الجامعات وتترجم الثقافات الأجنبية ، ويؤدى أعلام الفكر والثقافة رسالتهم من أجل خير الإنسانية ، وتعيش شتى العناصر والأجناس والألوان فى ظلال الإسلام فى محبة وسلام وإخاء .

هذا على الرغم من حكومات مستقلة فى بعض الأقطار الإسلامية ، كالدولة الطولونية التى قامت فى مصر عام ٢٥٤ هـ : ٨٦٨ م وسواها . ومن نفوذ العناصر الفارسية فى نصفه الأول والعنصر التركى فى نصفه الثانى .

ويمتاز هذا القرن بحرية الفكر ، وبنفوذ المعتزلة وسلطانهم فيه ، حتى مال المأمون إلى جانبهم ، وآمن بمبادئهم وأفكارهم الدينية ، فأصدر عام ٨٢٧م منشورا يقرر فيه رسميا القول بخلق القرآن ، وظل النفوذ الفكرى لهم فى دولة الخلافة ، إلى أن تسنم المتوكل العرش فأصدر عام ٨٤٨ م قراراً اعتبر فيه القول بخلق القرآن خروجا على الإسلام .

ويمتاز كذلك بازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وبظهور كثير من نوابغ الفكر العربى ، وبتجمع الثقافات وتمثلها فى الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، مما أثرى به الأدب العربى ثراءا كبيرا ؛ وكانت الترجمة من الفهلوية والهندية واليونانية والسريانية مستمرة ، وأخذ تراث الثقافة الهيلينية يؤثر فى تفكير فلاسفة الإسلام ، كما كان يؤثر فى التفكير البيزنطى أيضا . والتقى المسلمون بهذه الثقافة فى الولايات البيزنطية والفارسية وفى البلاد التى كانت خاضعة للرومان كمصر والشام ، وكان من أهم مراكز هـذه الثقافة الاسكندرية وغزة وقيصرية وأنطاكية وحران ، وكان الآراميون يحتفظون بكثير من أصول هذا التراث ، ومن ثم كانوا حلقة اتصال بين الثقافة الإسلامية واليونانية .

وكان الامبراطور تيوفيل أعظم شخصية بيزنطية وكانت القسطنطينية في عهده تنافس بغداد في الأبهة وفي حلبة الثقافة ، وكانت مدارسها وجامعاتها قبلة أنظار العلماء .

كما أثرت الحضارة العربية الشرقية الإسلامية في الامبراطورية البيزنطية أيضا ، فكان البلاط البيزنطي يحاكي بلاط بغداد في الترف والبهاء الشرقي الأصيل ، وكان عصر الأسرة المقدونية عصر بعث حقيقي لهذه الامبراطورية ، وفي عصر الأسرة العمورية التي تبدأ من عام ٨٢٠ م زاد نصيب بيزنطة من الحضارة والقوة ، وكان للبطريرك فوتيوس أثر في نحو النهضة الثقافية البيزنطية ، وأحيا برادس أعظم رجال الدولة والمتصرف الحقيق في شئونها جامعة القسطنطينية القديمة ، وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللغة .

(٣)

وقد كان التبادل الاقتصادي مستمرا بين الدولتين ، فكانت الطرق التجارية بين بغداد وآسيا الصغرى مفتوحة ، وكانت صادرات بغداد وبلاد الخلافة في آسيا الوسطى التي تمر قوافلها ببغداد تصلان إلى القسطنطينية رأسا .

(٤)

وقد تبودلت السفارات بين الدولتين خلال القرن التاسع ، وكان موضوع هذه السفارات دائما هو إجراء مفاوضات حول صلح أو هدنة أو فداء الأسرى ، وكانت هذه السفارات الإسلامية أو البيزنطية تخرج عادة على رأس قوافل محملة بالهدايا الثمينة والجوهرات لولي البلاد وبعض كبار رجال دولته ، وإذا وصل السفير بغداد أو القسطنطينية لقن آداب البروتوكول وحدد له موعد للتشرف بالمقابلة ، ويوضع له برنامج خاص لزيارة العاصمة والوقوف على مظاهر العظمة والأبهة في الدولة ، وربما أقيم له عرض عسكري قد يصل

من الفخامة إلى حد كبير ، وقد تكرر ذلك كثيراً فى هذا القرن :

ففى عام ٢٣١ هـ : ٨٤٥ م فى عهد الواثق وصل إلى بغداد سفير موفد من قبل إمبراطور بيزنطة للمفاوضة فى فداء الأسرى . وبعد مفاوضات طويلة ، فى بغداد بعث الخليفة سفيره أحمد بن أبى قحطبة إلى البلاط البيزنطى ووكل إليه إتمام الاتفاق على الفداء واستقبل السفيران فى بغداد والقسطنطينية استقبالا رائعا ، وكللت سفارتهما بالتوفيق .

وفى عام ٢٤١ : ٨٥٦ هـ بعث المتوكل سفيره نصربن الأزهر بن فرج إلى القسطنطينية للمفاوضة حول فداء الأسرى ، ونجحت هذه المفاوضات وتم الفداء فعلا يوم الأحد ١٢ شوال ٢٤١ هـ - ٢٣ فبراير ١٨٥٦ .

وفى عام ٢٤٦ هـ : ٨٦٠ م بعث المتوكل أيضا سفيره نصربن الأزهر بن فرج إلى القسطنطينية إجابة لطلب الإمبراطور ميشيل الثالث للمفاوضة حول فداء الأسرى ، وحين وصل السفير إلى البلاط كان متمنطقا سيفا وخنجرا ومتشحا بالملابس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة اللباس الرسمى للعباسيين ، فأبى عم الإمبراطور وهو وزيره بيروناس أن يسمح للسفير بالدخول إلى قاعة الإستقبال على هذه الهيئة واعـــترض السفير وهم بالعودة فلاطفه رجال البلاط الامبراطورى وأذنوا له بالمقابلة ، فدخل على الإمبراطور ، وقدم له الهداية التى بعث الخليفة بها معه ، وحضر المقابلة ثلاثة مترجمين حذرهم السفير من أن يزيدوا على ما يقول شيئا ، ولما تمت المفاوضات واتفق الطرفان على قواعد تبادل الأسرى أقسم كل منهما على الوفاء بتعهده واقسم (بيروناس) نيابة عن الإمبراطور وبإذن منه .

وقد أحسن الإمبراطور معاملة السفير ، وأفرد له منزلا غير بعيد من قصره ، وظل السفير أكثر من أربعة أشهر فى العاصمة ، وتم الفداء فعلا على أكثر من ألفى مسلم فيهم عشرون امرأة وعشرة أطفال لدى الروم وأكثر من ألف أسير من الروم عند العرب ، والألف الأخرى جعلت فدية

لأحد بطارقة الإمبراطور وكان قد وقع فى أسر المسلمين فى حصن لؤلؤة وجعلت فديته ألف أسير مسلم .

ولم تقتصر السفارات السياسية فى هذا القرن على ذلك فحسب بل كانت السفارات من بغداد وعواصم كثير من الدول مستمرة ، ومن ذلك مثلا أن شارلمان امبراطور الدولة الرومانية فى غرب أوربا بعث من ايكس لاسابيل عاصمة ملكه سفيرا له اسمه اسحاق إلى بلاط الخليفة الرشيد فى بغداد ، فأكرم الرشيد وفادة السفير ورحب بصداقة شارلمان ، وأوفد إليه سفراءه بهدايا فخمة : خيمة عربية وساعة مائية وأثواب حريرية وتخت من الذهب ، وفيل ، وبمفاتيح قبر المسيح فى بيت المقدس الذى يتولى حمايته . وتبادل الرشيد وشرلمان السفراء والهدايا فيما بين عامى ٧٩٧ و٨٠٦ م ، ويقال إن الرشيد منح شارلمان حسن رعاية المسيحيين فى الإمبراطورية الإسلامية ، وصحب هذه السفارات عقد محالفة بين الرشيد وشارلمان ، كان لها أغراض بعيدة هى رغبة شارلمان القضاء على الامبراطورية البيزنطية بأيدى الرشيد ، ورغبة الرشيد القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس بايدى شارلمان .

(٥)

أما الصلات الثقافية ، فقد ظلت متبادلة طول هذا القرن ، وكانت عاملا من عوامل التفاهم الفكرى والسياسى بين المسلمين والبيزنطيين .

فى عهد الرشيد استولى المسلمون على كثير من المخطوطات اليونانية النفيسة إبان إغاراتهم على الدولة البيزنطية ومدنها مثل أنقرة وعمورية ، ووصلت هذه الكنوز إلى بغداد ، وترجمت إلى العربية ، وقام بهذه الترجمة كثيرون من مهرة التراجمة من بينهم يحي بن ماسويه ، ومن ذلك نعرف أن إغارات الرشيد على آسيا الصغرى لم تكن تهدف إلى النهب والغنائم ، وإنما كان يقصد من ورائها كذلك الاستيلاء على كنوز البيزنطيين .

وبعث المأمون إلى الامبراطور ليو الخامس يطلب منه السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على الكتب اليونانية القديمة فى الفلسفة والهندسة والطب ، وكان المأمون قد أوفد جماعة من أشهر علماء عصره فى بعثة علمية إلى بيزنطة للحصول على هذه المخطوطات ، وكان فيهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة ، واختارت هذه البعثة الكثير من نفائس المخطوطات وعادت بها إلى بغداد ، وهناك كان قسطا بن لوقا يشرف على ترجمة هذه الكنوز الإغريقية الثمينة ، وكان غرض المأمون استخلاص أبدع ما فى الفكر الإغريقى من فلسفات وثقافات ومزجه بالثقافة العربية الإسلامية ، وأسس المأمون فى بغداد عام ٢١٥ هـ ، بيت الحكمة للاشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية ، وكان يضم مكتبة ومجمعا علميا للترجمة ، وكان هذا خطوة جليلة لتغذية العلوم الإسلامية بشىء من معارف اليونان .

وكان المأمون عالما متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وقد أولى ترجمة الثقافات الأجنبيه إلى العربية عناية خاصة ، إذ كان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة فى منطق اليونان ، وكان ينفق بسخاء على حركة الترجمة حتى أعطى وزن ما يترجم ذهبا ، وكان يحرض الناس على قراءة هذه التراجم ويرغبهم فى نقلها .

كما كان يخلو إلى الحكماء ويأنس بمحاضراتهم ، وقد اتخذ بطانة له من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود وأمر ولاته أن يبعثوا له بالكتب التى تقع فى أيديهم وجعل من شروط الصلح بينه وبين الإمبراطورية أن يرسل إليه مجموعه من الكتب النادرة ، وكان من علماء بيزنطة المشهورين من الرياضيات فى عصر المأمون ليو المهندس الفلكى الذى ذاع صيته فى بغداد عن طريق تلاميذه ، فأرسل المأمون إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بإجزال العطاء له ، ولكن تيوفيل لم يأذن له بالسفر ، ومنحه وظيفة معلم فى إحدى الكنائس فى القسطنطينية

وقرر له راتبا شهريا ، ولكن حرص المأمون على الإفادة من هذا العالم البيزنطى جعله يبعث برسالة شخصية إلى الإمبراطور تيوفيل يطلب فيها السماح بإيفاد ليو إلى بغداد فى رحلة قصيرة ، وذكر فى رسالته أنه يعد قبول الإمبراطور لهذا الطلب عملا وديا ، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم غير أن تيوفيل رفض طلب المأمون .

وقد أرسل الخليفة الواثق العالم العربى المشهور محمد بن موسى يأذن من الإمبراطور ميشيل الثالث إلى أفسوس لزيارة الكهف الذى حفظت فيه رفات أهل الكهف السبعة الذين استشهدوا فى اضطهادات ديسيوس وورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وأرسل الإمبراطور الروى دليلا ليصاحب العالم العربى ، فى هذه الرحلة العلمية وقد دخل محمد الكهف ورأى الرفات

وأرسل الواثق أيضا حملة كبيرة رأسها المترجم سلام ، الذى كان يعرف ثلاثين لغة ، إلى آسيا الصغرى ، ليكتشف السور الذى بناه الاسكندر سدا بين يأجوج ومأجوج كما ورد فى القرآن الكريم ، ودامت الحملة ٢٨ شهرا ولما عاد أعضاء البعثة كافأهم الخليفة ، وقدم له سلام تقريرا وافيا عن الحملة . ولم تقطع العلاقات الثقافية بين بغداد وبيزنطة طول هذا القرن .

وقد أسهم الوزراء والأمراء ورجالات الخلافة الإسلامية فى هذا القرن فى تشجيع حركة ترجمة الثقافة الإغريقية إلى العربية ، وممن أبلى فى ذلك بلاء حسنا أمراء البيت العباسى وأسرة البرامكة ، ووزراء الخلافة ، وموسى بن شاكر وأبناؤه محمد وأحمد والحسن الذين احتضنوا حنين بن إسحاق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ — ٢٦٤ ﻫ) وابنه إسحاق المتوفى عام ٢٩٨ ﻫ ، وأوفدوا حنينا على نفقتهم إلى اسيا الصغرى ليجيد اللغة اليونانية وليحصل على نفائس من المخطوطات القديمة وكانوا يجزلون العطاء لحنين وربما بلغ مرتبه خمسة آلاف دينار فى الشهر أو ما يعادل ٢٥٠٠ جنيها مصريا .

(٦)

وقد ألف مسلم بن أبى مسلم الجرمى وهو أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم فى فداء ٢٣١ هـ : ٨٤٥ م كتبا عن أباطرة بيزنطة وكبار رجالاتها ، وعن أقاليم الإمبراطورية ومسالكها ، ومناخها ؛ وما يجاورها من الدول .

ومن الرحالة المسلمين الذين وصفوا القسطنطينية هارون بن يحيى أحد الأسرى الذين نقلوا إلى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور باسل الأول ، وقد وصف هارون الطريق البحرى الذى حمل فيه إلى القسطنطينية ، كما وصف هذه العاصمة ومشاهداته فيها والقصر الإمبراطورى وموكب الامبراطور إلى الكنيسة وأديرة القسطنطينية وسوى ذلك من مذكراته ومشاهده الثمينــــة .

(٧)

وكانت الأسرى البيزنطيون فى بغداد وأسرى المسلمين فى القسطنطينية ، وهم كثيرا ما يبلغون عشرات الألوف ، عاملا من عوامل التقارب الفكرى والسياسى والاجتماعى بين الدولتين ، وكانت حوادث الحدود لا تنتهى بينهما ، وكثيراً ما توغلت جيوش الخلافة فى آسيا الصغرى وكثيرا ما أغارت جيوش الامبراطورية على مدن الشام والجزيرة ، وكانت هذه الحوادث سببا آخر من أسباب زيادة التبادل الفكرى ، إذ كان المنكرون والمنهزمون يتبادلون الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والآداب ، وبهذه العقلية الجديدة كان يفد السفراء على بلاط امبراطور بيزنطة ، وبهذا كانت تكتب رسائل الخلفاء التى يحملها السفراء ، وبها كتب (نيقولا ميستيكوس) بطريق القسطنطينية فى رسالة إلى حاكم جزيرة كريت المسلم يعبر عن إيمانه بالسلام بين الدولتين : « إن أعظم قوى العالم أجمع قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين » .

(٨)

ومن الأحداث التى كانت تقع على حدود الدولتين بين الحين والحين غزوة الرشيد فى صيف عام ٨٠٦م — ١٩٠ ه للممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى ، فقد قاد الرشيد بنفسه جيشا يبلغ عدده ١٣٥ ألف جندى عدا المتطوعين واستولى على عدة معاقل قوية منها هرقلة وطوانة شمال قلعة اللؤلؤة واضطر الامبراطور نقفور إلى طلب الصلح ودفع ٥٠ ألف دينار مقابل تخلى الرشيد عما بيده من الأراضى البزنطية ويوضح لنا هذا أن الخلافة العباسية لم تكن قد رسمت لنفسها سياسة هدفها تقويض دعائم الدولة البيزنطية .

ثم كانت الثورة التى أعلنها توماس الصقلبى على الامبراطور ميشيل الثانى فى آسيا الصغرى ، وشد المأمون أزر هذا الثائر ضد الامبراطورية فعقد حلفا معه تعهد فيه بأن يمده بجيش قوى لمهاجمة القسطنطينية ثم اتخذ هذا الحلف صبغة شرعية عندما توج بطريق انطاكية التابع للخلافة الإسلامية توماس امبراطوراً . ولكن ثورة توماس فشلت وهزمت جيوشه عام ٨٢٢ م وقبض على توماس فى منتصف أكتوبر ٨٢٣ وحكم عليه بالإعدام . ولكن المأمون لم يسكت فغزا بجيشه فى ٣٠ يوليو ٨٣٠ مدنا فى آسيا الصغرى ، واستولى على قرة وماجدة وحصن سندس ، وكان سبب ذلك اعتداءات الامبراطورية على الحدود ، وفى عام ٢١٦ ه دخل المأمون أيضا هرقلة ومدنا أخرى فى آسيا الصغرى وفى عام ٢١٧ ه حاصر حصن لؤلؤة . وقد مات المأمون عام ٢١٨ ه وهو يغزو داخل الحدود البيزنطية .

ولم تسكت بيزنطة على تأييد بغداد لثورة توماس فقد أيدت هى كذلك ثورة بابك التى اشتعلت نارها بعنف فى أذربيجان وأرمينيا وأعد الأمبراطور البيزنطى تيوفيل جيشا من مائة ألف هاجم به حصن زبطرة قرب الحدود عام ٢٢٣ ه ٨٣٧ م وفى هذه السنة تمكن المعتصم من القضاء على هذه الثورة ، ثم اعد ثلاثة جيوش قاد بنفسه إحداها وهاجم بها الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى واستولى على أنقرة وعمورية مهد الأسرة العمورية الحاكمة وقد دمر هذه المدينة عام ٢٢٣ ه : ٨٣٨ أخذا بثأر زبطرة .

ولجأ تيوفيل إلى عبد الرحمن الثانى ملك الأندلس (٨٢٢ — ٨٥٢ م) يستعين به ليهاجم الخلافة العباسية فى المغرب العربى فأرسل سفارة وصلت قرطبة فى نوفمبر ٨٣٩ م : ٢٢٥ هـ لعقد محالفة بين الملكين، ومنى تيوفيل ملك الأندلس بملك أجـــداده فى المشرق فرد عبد الرحمن ردا حسنا وبعث إلى الامبراطور بهدايا ثمينة مع سفيره يحيى الغزال .

وفى عام ٨٦٣ م تمكن الامبراطور ميشيل الثالث من الأخذ بثأر عمورية بإبادته جيش ملطية العظيم الذى كان يقوده عمر الاقطع وقد تركت هزيمة هـذا الجيش العربى أثرها الدامى فى الملاحم العربية وبقى هذا الأثر إلى أيامنا فى الرواية العربية التركية المسماة السيد المسلم البطال وفى إحدى قصص ألف ليلة وليلة . وقد استشهد البطال عام ٧٤٠ م : ٩٩ فى معركة أكرونيون بآسيا الصغرى فى حصار القسطنطينية وكتبت قصة بطولته بعد ذلك بكثير وترددت فى القصة صور من الأعمال الحربية بين الدولتين فى القرن التاسع وكان صدى الأحداث العسكرية بين الدولتين كثيرا ما يتردد فى الأغانى الشعبية التى تدور حول أحداث الحدود وفى شعر شعراء العرب فى القرن التاسع كقصيدة أبى تمام المشهورة فى فتح عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حدة الحد بين الجد واللعب

المراجع :

العرب والروم — فازلييف - دار الفكر .
الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية - دكتور إبراهيم العدوى .
الطبرى .
ابن الأثير .
الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين .
الحياة الأدبية فى العصر العباسى — للمؤلف .
محاضرات فى تاريخ الأمم الأسلامية للحضرى بك .
الفتوحات الإسلامية لدحلان .
مواكب الحرية فى مصر الإسلامية - للمؤلف .
الوطن الإسلامى - مخطوط - للمؤلف .

أبو تمام وعبقريته

فى اختياراته فى كتاب الحماسة

(١)

حماسة أبي تمام من أشهر مصادر الشعر العربي ، وأهم مجموعة من المختارات ، تمثل الشعر الجاهلي والإسلامي ، وهي الغذاء الأدبي لكل باحث أو دارس .

وقد اهتم بها النقاد اهتماما كبيرا ، وهي تمثل الشعر العربي القديم تمثيلا واضحا لا خفاء فيه .

وقد جمع هذه المختارات الشاعر العربي الكبير الخالد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٩٠ — ٢٣١ هـ) ، وهو من أشهر شعراء العربية في القرن الثالث الهجري .

وهذه المختارات قسمها أبو تمام إلى أبواب ، وجعل باب الحماسة هو الباب الأول منها ، ولذلك سميت باسم الحماسة ، وهو الباب الذي صدرت به المختارات .

وكان أبو تمام يسميها « الاختيارات من شعر الشعراء » ، ورتب الكتاب على أبواب عشرة : الحماسة . والمراثي والأدب . والتشبيب ، والهجاء . والاضافات ، والصفات . والسير . والملح ومذمة النساء . واشتهر بالباب الأول تغليبا ، لأن الحماسة شجاعة العرب وهي الأولى من صفاتهم . ولوقوعه الوقع الحسن لدى عامة أهل الأدب صار علما له ، فيقال أبو تمام صاحب الحماسة . وصار لمجموعه هذا من الرواج ما ضاعف شهرته حتى قيل إنه في اختياره للشعر شاعر .

وقد تأثر الأدباء بحماسة أبي تمام والفوا كتبا على نمطها باسم الحماسة ، ومنها :

١ — الحماسة : لأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري وهي مطبوعة في بيروت .

٢ — الحماسة : للعسكري : أبي هلال العسكري .

٣ — الحماسة : للأعلم الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ .

٤ — الحماسة : للخالديين وهما أبو عثمان سعيد وأبو بكر محمد ابنا هاشم من شعراء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ، وتعرف حماستهما بالاشباه والنظائر ، ومنها نسخة بدار الكتب المصرية .

٥ ـ الحماسة : لأبى السعادات هبة الله بن على الشجرى العلوى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وتعرف بالمختارات وهى مطبوعة .

٦ ـ الحماسة : لعلى بن حسن المعروف بشميم الحلى المتوفى سنة ٦٠١ هـ

٧ ـ الحماسة : لأبى الحجاج يوسف بن المحمد الاندلسى البياسى المتوفى سنة ٦٥٢ هـ ، وهى كبيرة فى مجلدين منها قطعة بمكتبة غوته بالمانيا .

٨ ـ الحماسة : البصرية لصدر الدين على بن أبى الفرج المقتول سنة ٦٥٩ هـ ، وهى تضاهى حماسة أبى تمام ، ومنها نسخة بدار الكتب المصرية .

(٢)

وقد ولد أبو تمام سنة ١٩٠ هـ بجاسم قرية من قرى دمشق ، وانتقل إلى مصر ونشأ بها فكان يحمل الجرة ويسقى الماء بجامع عمرو . ولازم المسجد ومال من صغره إلى العلم والأدب ، فكان يحضر مجالس العلماء ، ويغشى أندية الأدباء ، وروى الكثير الجيد من شعر غيره ، واستظهر الآلاف من القصائد والمقطوعات والأراجيز ، ولسعة محفوظه كان ينشد أربعة آلاف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطوعات مع جودة ما يحفظ من ذلك ويختار ، حتى قالوا إنه فى اختياره : شاعر . ومن تآليفه: « الحماسة » وله مجموع آخر سماه « فحول الشعراء » جمع فيه طائفة كبيرة من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وكتاب « الاختيارات من شعر الشعراء » .

عنى أبو تمام بجمع المختارات من أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ودونها فى كتاب الحماسة وغيره ، فكانت هذه العوامل وما أضيف إليها من جودة الطبع وسلامة الذوق وصفاء العقل مما جعل أبا تمام يتوفر على قول الشعر ويجيد فى كل فنونه . وقد تهيأت له من صغره أسبابه ، وكملت عنده أدواته ، وكان من أبصر الناس بما يحتاج إليه الشاعر فنبغ فيه وسار ذكره ، حتى قيل ليس فى المولدين أشهر اسما بعد الحسن أبى نواس من حبيب

والبحترى ويقال : إنهما أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ، وكان دعبل على تقدمه فى السن والشهرة لايصيب مع أبى تمام شيئا .

ولأبى تمام وصية مشهورة لتلميذه أبى عبادة البحترى ، تدل على ذوقه فى الأدب والنقد وجاء فيها :

« تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة فى الاوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قـــد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، فان أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مدح سيدى ذى أياد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه ، وتقاض المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ المزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ان تعتبر شعرك بمـا سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد ان شاء الله تعالى » .

(٣)

وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ، أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحترى ، وثالثهم المتنبي .

والمشهور فى نسبه أنه عربى طائى ، والمرجح فى مولده أنه ولد سنة ١٩٠ هـ بقرية جاسم من كورة جيدور شمالى حوران من أعمال دمشق وعلى بعد ثمانية أميال منها من أبوين فقيرين ، ونقل صغيرا إلى مصر فلبث بها مدة يشتغل بمهن حقيرة . ثم كان يسقى الماء بالجرة فى جامع عمرو بالفسطاط .

والظاهر أن طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث حبب إليه العلم والأدب . فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب ، قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقطعات والقصائد .

ولما أينعت ثمار أدبه واستحصف شعره عرف أن مصر لاتنهض بإذاعة فضله وتحقيق أمله ، فعاد إلى الشام ، ولبث فيها مدة يمدح رؤساءها وولاة الدولة ؛ فذاع شعره بالجزيرة والعراق ، ودعاه رؤساء الدولة ان يقدم إلى العراق ، فقدمها ومدحهم ، واتصل بالخليفة المعتصم فمدحه ، وحظى عنده ، وعند وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وعند الحسن بن وهب أحد رؤساء الكتاب ومحمد بن حميد الطوسى الطائى أحد قواد العرب فى جيش المعتصم .

ثم كان يرحل إلى كبار عمال الدولة بممالكهم كعبد الله بن طاهر بخراسان وأبى دلف العجلى ببلاد الكرج وأرمينية ، ومدحهم بالقصائد الخالدة وقربوه منهم إلى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر . فولاه الحسن ابن وهب صاحب ديوان الرسائل فى زمن المعتصم ولاية بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين وتوفى سنة ٢٣١ هـ ودفن بها ورثاه الوزراء ورؤساء الدواوين كابن الزيات والحسن بن وهب وغيرهم(١) .

وكان أبو تمام أسمر اللون طويلا فصيح الكلام فيه تمتمة يسيرة ، وكان حاضر الذهن سريع الجواب ، قلما عرف من أهل زمانه مثله فى حدة الخاطر ولطافة الحس . حكى أنه لما مدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية وانتهى فيها إلى قوله فى المدح :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

---

(١) وقع سهوا من النساخ وفى نسخة الاغانى المطبوعة بمصر أن جاسم أحد قرى منبج وهو خلط بين نسب البحترى الطائى وأبى تمام الطائى ، لأن الذى ولد بقرية من قرى منبج هو البحترى لاأبو تمام والقرية التى ولد بها البحترى تسمى حردفنة وبينها وبين جاسم مسافة كبيرة .

قال له فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندى ، وكان حاضرا : الأمير فوق ما وصفت . فأطرق مليا وقال :

لاتنكروا ضربى له من دونه　　مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره　　مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعة خاطره وحدة فطنته .

كان أبو تمام حاضر الجواب قوى البديهة . . . ومن نوادره فى ذلك أنه لما قصد الأمير عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، وامتدحه بالقصيدة التى أولها « اهن عوادى يوسف وصواحبه » أنكر عليه أبو العميثل أحد شعراء عبد الله بن طاهر وخلصائه ، وقال له « لم لاتقول مايفهم ؟ » فقال له على البديهة « لم لاتفهم مايقال ؟ » فاستحسن منه هذا الجواب السريع .

وأبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل وحكمتها من اليونان والفرس والهند فحصف عقله ولطف ذهنه بالإطلاع عليها واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا .

ولما رأى أن قد فاته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها ، وأتى من الجناس بما عرف به شعره ، وصار من خصائص شاعريته ومع هذا سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، و صيغت فيه من الألفاظ الرائقة ، وضمنه من الأمثال والحكم التى زادت فى

ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى وغيرهما إلى حكمهم .

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى ، ولم يرزق أحد السعادة فى شعره ، وتناول الناس له نقدا أو شرحا واستشهادا به ، مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تزد سنه على الأربعين بكثير ، فكيف به لو عمر؟! .

وأجاد أبو تمام القول فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر . وأشهرها القصيدة المشهورة التى رثى بها محمد بن حميد الطوسى الطائى ومنها هذه الأبيات :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر	فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمـــد	وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله	وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه	إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا فى سبيل الله من عطلت له	فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة	دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه	ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة	تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده	إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله	وقال لها : من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه	فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

ومنها :

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها محي القريض إلى مميت المال

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمورية ويسخر فيها بالمنجمين وأولها :

السيف أصدق انباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

ومن قوله فى الحجاب :

يا أيها الملك النائى بغرته وجوده لمرجى جوده كثب
لبس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

(٤)

ولقد كان أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز من أبرز شعراء القرن الثالث وأبو تمام رائدهم وإمامهم وزعيم المحدثين فى التجديد الشعرى فى القرن الثالث الهجرى .

كان أبو تمـــام وابن الرومى يتعمقان فى الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران المعانى العميقة والآراء البعيدة فى الشعر ، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختيارا دقيقا ،

ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التى عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم ، من حيث كان ابن الرومى قانعاً بالغوص على المعانى دون التفات أو إيثار لألوان الجمال فى الأسلوب ، أما أبو عبادة البحترى فقد كان قريبا فى أفكاره واضحا فى أسلوبه يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موائما للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبى الخالص الذى لم تفسده آثار الحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة فى الشعر. وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ماسواه ، أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديدا ، فتأنق فى ألفاظه وفى أسلوبه ، وأجاد فى ألوان البديع وأصباغ الزخرف التى وشى بها شعره ، وعنى بذلك عناية كبيرة ، ومع ذلك فانه لم يغفل نزعات التفكير التى كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التى امتزجت بالحياة العقلية فى هذا العصر الخصب ، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبى تمام ومدرسة البحترى ومثلها أدق تمثيل مع ظهور شخصيته ووضوح أثره فى الحياة الأدبية وتطور الشعر فى عصره .

فأبو تمام شاعر مبدع ألقيت إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء فى عصره وآثر فى نظم الشعر تجويد المعنى ودقته ، فكان « لطيف الفطنة دقيق المعانى غواصا على مايستصعب منها » ، وهو « متكلف إلا أنه يصيب ؛ وشغله المطابقة والتجنيس جزل المعانى ؛ مدحه ورثاؤه لاغزله وهجاؤه وطارت له أمثال وحفظت له أقوال » ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديئه مرذول مطروح » « وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة » « وهو راس فى الشعر ومبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه » وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد البديع ؛ فهو أكثر الشعراء بديعا واقتنانا وصنعة فى شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا وهو من المعروفين بجودة الرثاء « ولم يكن له حلاوة توجب حسن التغزل وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره وكان يأتى فى شعره برد الإعجاز على الصدر ولا يأتى به

إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه وقصيدته « متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل» محشوة بالصنعة ، وتكلف فيها ألوان البديع بما عيب هو وأشباهه عليه . وشعره مباين للشعر فى عصره مباينة واضحة من حيث تصوره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفى كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعانى الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذى ينظم فيه .

ويرى بعض النقاد أن أبا تمام لا يعد فى نظر أهل العصر الحاضر مثلا أعلى للشعر لأنه لم ينقل فى شعره كثيرا من صور العواطف التى كانت تجيش بصدر المجتمع فى ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية فى عصره تمثيلا صحيحا ، ولم يكن كأبى العلاء حرا فى إبداء مايختلج بنفسه من المعانى ، ولا شجاعا فى بيان مايعتقده حقا . ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقته ، وأخمل هو والبحترى فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون ، وتتلمذ عليه كثيرون كالبحترى وسواه .

وكان البحترى يقدمه وكذلك ابن الرومى ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تتلمذ على أدبه وشعره .

وكان البحترى تلميذ أبى تمام ، وكان يتشبه به فى شعره ، ويحذو حذوه فى البديع وكان يراه صاحبا وإماما ، وترسم خطا أبى تمام ومضى على أثره فى البديع ، إلا أنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى . واستمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من آراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة فأعاد للشعر ماذهب من بهجته ورونقه ؛ حتى قال المتنبى فيه : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى » .

شخصية بغدادية أندلسية

أبو علي القـــالي البغدادي

٢٨٨ — ٣٥٦هـ

(١)

ترجع شهرة أبي على القالى إلى كتابه الجليل «الأمالى» ، ويعد كتاب الأمالى لأبى على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى من أشهر مصادر الأدب العربى القديم ، ويعد من أصول الثقافة الأدبية ، وقد أشاد به العلماء والأدباء والنقاد يقول فيه ياقوت فى معجم الأدباء[١] : «كتاب الأمالى معروف بين الناس ، كثير الفوائد ، غاية فى معناه» . وقال أبو محمد بن حزم فيه : هو مبار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد ، ولئن كان كتاب أبى العباس المبرد أكثر نحوا وخبرا ، فان كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا[٢] .

والكتاب دائرة معارف واسعة فى الأدب والنقد والشعر واللغة ، وهو بحق فى مقدمة أمهات كتب الأدب العربى المعدودة . ويقول القالى فى مقدمة الكتاب : «أودعته فنونا من الأخبار ، وضروبا من الأشعار . وأنواعا من الأمثال ، وغرائب من اللغات ، على أنى لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضربا من الشعر إلا اخترته ، ولا فنا من الخبر إلا انتخلته ، ولا نوعا من المعانى والمثل إلا استجدته ؛ ثم لم أخله من غريب القرآن ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أننى أوردت فيه من الابدال ما لم يورده أحد ، وفسرت فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر»[٣] .

ويقول محقق كتاب الأمالى : إن أئمة اللغة والأدب طالما تجدهم ينظمون فى كتبهم من درره ، ويغترفون من بحره ، وهو تأليف جزل الفائدة ، جم

---

(١) ص ٣٥٢ ج ٢ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) ص ٣ ج ١ الامالى طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م - وقد تحدث صاحب الامالى عن الاتباع فى الجزء الثانى من كتابه صفحة ١٠٨ ، كما تحدث عن الابدال أيضا فى الكتاب .

النفع لمن يريد التعمق فى علم اللغة ، وتزيين عقله بالآداب العربية ، والأخبار المنتخبة ، والأشعار المختارة ، والأمثال المستجادة .

وقد طبع الكتاب لأول مرة فى مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة عام ١٣٢٢ هـ ، فأقبل على اقتنائه العلماء والأدباء إقبالا منقطع النظير ، وقررت وزارة المعارف المصرية تدريس الكتاب فى مدرستى دار العلوم والقضاء الشرعى وفى غيرهما من المعاهد العلمية إبان ذلك العهد ، واتخذ فى الأزهر الشريف كتابا للمطالعة ، ثم أعيد طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية عام ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م مع إدخال تحسينات عليه ، والحاق فهارس مستوفاة به ، وإضافة كتاب « التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه » للإمام أبى عبيد البكرى[1] إليه . .

والأمالى مطبوع فى دار الكتب المصرية فى جزئين يقع الأول فى ٢٨٤ صفحة عدا المقدمة ، والثانى فى ٣٢٦ صفحة ، وكتاب ذيل الأمالى والنوادر للقالى أيضا فى ٢٢٤ صفحة . . أما كتاب التنبيه مع فهارس الأمالى فيقع فى ٢٢٤ صفحة أيضا .

والتعليقات التى نشر بها الكتاب فى طبعتيه قليلة وإن كانت قيمة ، ولدى

---

(١) هو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الوزير ، من أعيان الأندلس وأدبائها وعلمائها المشهورين ، كان من أهل مرسية ، وبها ولد عام ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠م ونشأ ، ثم هاجر إلى قرطبة ، ثم لاذ بصاحب المرية فاصطفاه لصحبته وآثر مجالسته والأنس به ، وتهادى ملوك الأندلس مؤلفاته . وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة ، والمعرفة بالتاريخ والأنساب والأخبار والشعر ، وتوفى بقرطبة عام ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م (٢ : ٥٢ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، و ١ : ٢٨٢ ابن بشكوال ، وراجع كذلك المقدمة التى نشرت فى صدر كتاب التنبيه ، بقلم الأب أنطون صالحانى اليسوعى) .

شرح واسع مستفيض ضخم للكتاب يقع فى ستة أجزاء كبار ، حجم كل جزء لا يقل عن خمسمائة صفحة ، إلا أننى حتى اليوم لم أحاول نشر هذا الشرح الضخم لما يتكلفه من أعباء مالية كبيرة ، ولفقدان التشجيع على نشر مثل هذه الآثار والتآليف .

وتراثنا الأدبى القديم فى حاجة ماسة إلى العناية به ، وطبع روائعه ، وعلى كثرة سبل الطبع والنشر اليوم ، فإنه لم يعد أحد فى عهدنا الحاضر يعنى بمثل هذه الكتب ، لأن شباب العرب صار اهتمامهم بقراءة القصص والمجلات أكثر من اهتمامهم بقراءة المصادر والأصول لثقافتنا العربية الإسلامية .

(٢)

والقالى من أشهر أعلام الادب العربى القديم ، وهو إمام فى اللغة وعلوم الأدب ، وله مؤلفات جمة مأثورة مشهورة ، ويقول الزبيدى فيه : « ما نعلم أحدا من المتقدمين ألف مثله[١] » . وكان القالى أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين ، وأكثرهم تدقيقا فى ذلك .

وحياة القالى مثال رائع لحياة العلماء المسلمين فى العصور القديمة ، عصور النهضة الفكرية والازدهار العلمى ، والتشجيع الكامل من الخلفاء والوزراء والأعيان . . إن العلم فى العالم الإسلامى القديم لم يكن وسيلة للدعاية السياسية ولا للشهرة الرخيصة ، ولا للإعلان الكاذب ، ولا للمجد . . إنه كان حركة ضخمة لخدمة التقدم والرقى بالحضارة وإعزاز شأن العقل ، والنهوض بمستوى الحياة ، وكان العلم والتعليم كله مجانيا ، وأجور العلماء ومكافآت الطلاب كلها من الدولة ، هذا إلى الاوقاف الضخمة ، التى كان يرصدها أعيان المسلمين على الجامعات والمدارس والمساجد وحلقات العلم ، وإلى حد كبير يصح أن نقول اليوم إن حركات التعليم فى العالم العربى والإسلامى لا روح لها ، لانها

---

(١) ٢ : ٣٥٢ معجم الأدباء لياقوت .

ليست خالصة لوجه الله ، وليس المقصود بها العلم فى حد ذاته ، وإنما تتجه للكسب المادى ، ولتسنم الوظائف ، ولإدراك الشهرة قبل كل شىء ، ومع التقدم الزمنى الكبير فلا زلنا فى العلم المادى عالة على الغرب . أما علومنا الإسلامية الأصيلة فقد قلت العناية بها وضعف الإقبال عليها ، وفترت روح العلماء والمتعلمين حيالها ، وتكاد الأيام المقبلة تهدد الثقافة الإسلامية الأصيلة تهديدا خطيرا : بإضعاف روح الإقبال عليها ، وبإهمال شئون طبعها ونشرها وبانعدام إدراك فائدتها وقيمتها .

فكتاب كتاب الأمالى الذى نتحدث عنه لم يعد اليوم مقررا للدراسة فيما نعلم إلا فى كلية اللغة العربية ، وهذا شأن الكامل للمبرد ومقدمة ابن خلدون والبيان والتبيين للجاحظ وزهر الآداب للحصرى وسواها .

ولد أبو على اسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان مولى عبد الملك بن مروان الخليفة الاموى المشهور عام ٢٨٨ ﻫ بمنازجرد من أعمال ديار بكر[١] ، وبها نشأ وحصل أطرافا من العلم ، ثم رحل عنها إلى العراق لطلب العلم والتحصيل ، وفى طريقه إلى بغداد كان فى رفقة جماعة من « قالى قلا »[٢] ، وكانوا ـ كما يقول القالى ـ يكرمون لمكانهم من الثغر ، فلما دخل بغداد نسب إليهم لكونه معهم ، وأطلق عليه القالى ، وأحيانا كانوا يسمونه البغدادى لطول إقامته فى بغداد ، وكانت رحلة القالى إلى بغداد عام ٣٠٣ ﻫ ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره[٣] ، وفى بغداد تتلمذ على فحول

---

(١) بغية الملتمس للضبى ص ٢١٨ ، وهو أحد الكتب التى تجمعها المكتبة الأندلسية ، وهى الصلة لابن بشكوال فى جزءين ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، وتكملة الصلة لابن الأبار وتكملة التكملة لابن الأبار ، وبغية الملتمس للضبى ، والمعجم لابن الأبار ، وفهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الأشبيلى . وقد نشرت المكتبة الأندلسيه فى مدريد بإشراف المستشرقين الاسبانيين : كوديرا . وريبرا .

(٢) قرية من قرى « منازجرد » . (٣) ١ : ٣٥٢ معجم الادباء لياقوت .

العلماء ، وأئمة الثقافة ، وجهابذة الرواة ، من مثل: البغوى المتوفى عام ٣١٧هـ ، والعدوى (٢١٠ - ٣١٩ هـ) والسجستانى المتوفى عام ٣١٦ هـ ، وابن صاعد (٢٢٧ - ٣١٧ هـ) ، وابن درستويه (٢٥٨ - ٣٤٧ هـ) والزجاج المتوفى عام ٣١١ هـ ، والاخفش الصغير المتوفى عام ٣١٥ هـ ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ) ونفطويه المتوفى عام ٣٢٣ هـ ، وابن السراج المتوفى عام٣١٦ ، وابن الانبارى المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، وسواهم من أعلام العلماء الذين يروى عنهم وينوه بعلمهم .

وبدا نبوغ القالى فى علوم اللغة والادب لأساتذته ، وأخذت شهرته تزداد فى حلقات العلم والثقافة فى بغداد ، وجلس للتعليم والإفادة ، وظل ربع قرن مقيما فى بغداد متعلما ومعلما ومحققا ومفيدا ، حتى جاءت سنة ٣٢٨ هـ ، فكانت سنة تطور كبير فى حياة القالى الثقافية والادبية .

كان القالى ينتمى إلى بنى أمية ، وكان هواه معهم ، وكان ازوراره عن بنى العباس شبه معروف للخاصة من أترابه ولداته ، وكان لبنى أمية دولة فى الاندلس أسسها الداخل عام ١٣٨ هـ ، وظلت قائمة حتى عصر القالى .

وكان من الممكن أن يسمع الامويون فى الأندلس بعالم كبير ينتمى إلى بنى أمية ، ويعيش فى بغداد شبه مغضوب عليه .

وكان الحكم فى الاندلس إبان ذاك للخليفة الاموى المشهور عبدالرحمن الناصر الذى تولى الحكم فى الاندلس خمسين عاما (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) رفع فيها منار العلوم والآداب فى هذه البلاد ، ووطد فيها دعائم الدولة ، ونهض بمملكته نهضة جليلة ، وحارب خصومه وانتصر عليهم فى مواقع عديدة ، وكان يساعده فى حكم البلاد ابنه وولى عهده الحكم بن الناصر الذى ولى الخلافة بعد أبيه ستة عشر عاما (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) . وكانت عاصمة الخلافة الأموية فى الأندلس هى قرطبة منذ أسس عبد الرحمن الداخل مملكة أموية فيها ، وفى عهد الناصر وابنه الحكم أسست المكتبات ، وأنشئت الجامعات والمدارس ، وازدهرت الحركة العلمية فى الاندلس ازدهارا لم يحدث له نظير من قبل .

(٣)

وكانت قرطبة إبان ذاك تعد من العواصم الكبرى فى العالم ، وقد بلغت من الحضارة منزلة تكاد تصل إلى المنزلة التى بلغتها بغداد ، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة ، وقد أنشأ الناصر على مقربة منها مدينة الزهراء الخالدة ، وينقل المقرى عن أبى سعيد مؤلف « الحلة المذهبة فى مملكة قرطبة » أن هذه المدينة كانت أكثر بلاد الاندلس كتبا ، وكان أهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك من آلات الرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذى لا تكون له معرفة يحتفل أن تكون فى بيته خزانة كتب ويحتفظ بها ، وما هو إلا أن يقول : عندى خزانة كتب (أى مكتبة) ، والكتاب الفلانى ليس عندى غيرى ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصلته وظفرت به ، ويقول سديو : كانت هذه المدينة تصبح مضيئة ، وحاراتها مطيبة بما يلقى فيها من الزهور ، مع استعمال الألحان المطربة فى المنتزهات والميادين العامة .

وفى لحظة حاسمة فى حياة القالى وصلته رسالة من الناصر خليفة المسلمين فى الأندلس ، يرغبه فى الوفود عليه، لنشر علمه ، ولبى القالى الدعوة ، وسافر إلى قرطبة ، مودعا بغداد وعهده فيها ، وحياته بها .

وفى أحد ثغور الأندلس وصلت السفينة التى تقل عالمنا الكبير ، وتلقاه بأمر الحكم ولى العهد فى الميناء ابن رماحس فى وفد من العلماء والوجهاء ، وساروا وسار معهم القالى فى موكب نبيل إلى قرطبة ، يتذاكرون الأدب ، ويتناشدون الشعر .

وكان ممن صحب القالى إلى قرطبة الأديب الأندلسى ابن رفاعة الألبيرى ، وللقالى معه قصة غريبة ، أنشد القالى فى الطريق بيتا من الشعر لعبدة بن الطبيب:

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافها لأيدينا مناديل

فأنكر ابن رفاعة البيت ، واستعاده من القالى مرارا فأنشده القالى فى كل مرة « أعرافها » ، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين الناصر ، وتتجشم

الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقـــيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط فيه الصبيان ، والله لاتبعته خطوة » ، وانصرف عن الجماعة .

ولعل هذه القصة هي التي جعلت القالي يشهد للأندلسيين بالعلم والذكاء ، يقول ابن بسام في الذخيرة عن القالي : لما وصلت القيروان وأنا أعير من أمر به من أهـل الأمصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة ، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان . قال ابن بسّام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم ، ويتخطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت .

دخل القالي قرطبة لثلاث بقين من شعبان عام ٣٣٠ هـ كما يقول ابن خلكان ، فأكرم الناصر وفادته ، وأعلى في دولته مكانته ، وآثره بالعطف والتقدير ، بتأديب ولي عهده الحكم ، وتثقيفه ثقافة أدبية وعربية خالصة ، واستوطن قرطبة ، وأخذ يلقي محاضراته ودروسه في حلقات مسجدها الجامع ، فأورث أبو علي أهل الأندلس علمه ، وأقبل عليه أهـل الأندلس للإفادة والتعلم والتأدب من دروسه التي كان يلقيها من روايته وحفظه في كل يوم خميس بقرطبة ، في المسجد الجامع بالزهراء ، وكان أبو علي واسع العلم ، كثير الرواية ، طويل الباع في علوم الأدب واللغة ، مما شهد به علماء عصره ، فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة ، والأخبار والأمالي ، وعظمت استفادتهم منه . ومن تلاميذه في هذه الفترة : الزبيدي مؤلف كتاب مختصر العين وإمام اللغة والادب في الاندلس في عصره وسواه .

وللشاعر الاندلسي الرمادي يوسف بن هرون الكندي قصيدة في مدح القالي ، قال فيها :

روض تعاهده السحاب كأنه   متعاهد من عهـد إسماعيل
قسه إلى الأعراب تعـلم أنه   أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغـات فرقت   فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكأنما   نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت فى غربنا   وتغيبت عن شرقهم بأفول

وحقا كان القالى شمسا بدت من المغرب ، وخلا منها مكانها فى المشرق .

وعاش القالى عشرين سنة فى الاندلس فى خلافة الناصر ، ثم ست سنوات أخرى فى خلافة الحكم بن الناصر ، الذى شمله بالعطف والعطاء ؛ مما جعله فى سعادة ورخاء ونعمة وفراغ بال، ومما جعله يعكف على الإفادة والتأليف .

وللقالى كتب عديدة منها : الأمالى ، والممدود والمقصور ، وكتاب الإبل ، وكتاب حلى الإنسان والخيل وشياتها ، وكتاب « فعلت وأفعلت » ، وكتاب مقاتل الفرسان ، وتفسير السبع الطوال ، وكتاب البارع فى اللغة ، وسواها .

وكان بين أبى على القالى وبين العلماء والأدباء فى الأندلس صداقات ومداعبات ووفاء ، وكان من معاصريه من علماء اللغة بالأندلس : ابن القوطية وغيره .

وكان تعصب الدولة فى الأندلس لكل ما هو أموى يرفع من مكانة القالى فيها ، وخاصة عند الخليفة الناصر وولى عهده ، ولذلك رفعت مكانته فى الدولة ، واحتل منزلة سامية فيها ، وصار عميد العلماء والأدباء فى عصره ، كما كان إمام الأدب وشيخ اللغة فى زمانه .

ومما يدلك على مكانة القالى أن الخليفة الناصر وولى عهده الحكم كانا يعهدان إليه بتمثيل الدولة فى أخطر المواقف السياسية ، حتى ليروى أن الناصر كلفه بالخطابة أمام وفد الروم لولا أن أبا على بهت وانقطع عنه الكلام فى هذا الموقف ، فقام مقامه منذر بن سعيد البلوطى .

وتوفى القالى فى قرطبة فى ربيع الآخر عام ٣٥٦ هـ ، وشيعت جنازته الأندلس كافة ، وبكاه فيها العلماء والأدباء والطلاب بكاء حارا ، رحمه الله رحمة واسعة .

(٤)

ومقدمة كتاب الامالى سجل ثمين يكشف لنا ألوانا عديدة من حياة القالى وأدبه ، فهى تمثل نثره الفنى أصدق تمثيل ، وهى تصور لنا البواعث النفسية لتأليف الامالى ، والقالى فيها يشيد ـ بعد حمد الله ـ بفضل العلم وترفع العالم ، ويثنى فيها على الناصر وتشجيعه للآداب ، وعلى ولى عهده الحكم ، ويذكر أنه أملى « الأمالى » فى يوم الخميس بقرطبة ، وفى المسجد الجامع بالزهراء المباركة ، ثم يختم المقدمة ببيان ما اشتمل عليه الكتاب من بحوث وآراء ودراسات .

والأمالى مع مظهره الأدبى العالى ، يدل على ثقافة لغوية واسعة ، وهو حافل بالفوائد اللغوية التى لا توجد فى كتاب ، فتجد القالى فيه مثلا يتعرض لتفسير مادة « نسأ » ومادة « لحن » ومادة « حرد » ، ويفسر الغريب من حديث السحابة التى نشأت ورسول الله جالس بين أصحابه صلى الله عليه وسلم ، ويتعرض للكلام على غريب حديث : « ألم أخبر أنك تقوم الليل » ، وتجده كذلك يخصص مطالب لترتيب أسنان الإبل وأسمائها وأسماء الرجل يحب محادثة النساء ، ولأسماء الشخص ، ولأسماء الألوان وأوصافها ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه الكتاب من ثقافة لغوية عرض لها المؤلف قصدا ، أو ذكرها أثناء شرحه لنصوص أدبية قديمة أو محدثة ، وفى فصول فى الكتاب يذكر ما تتعاقب فيه العين والحاء ، والهمزة والهاء ، والسين والتاء . الخ .

أما ثقافات الكتاب الأدبية فينطق بها ما احتوى عليه الكتاب من روائع الآثار الأدبية المروية عن العصر الجاهلى والإسلامى والأموى وصدر دولة بنى العباس ، وهى نصوص أدبية رفيعة قد لا توجد فى كتاب آخر ،

سواء ما سجله القالى منها من النثر أم الشعر .

وفى الكتاب كذلك آراء وأحكام ومجالس فى النقد ، وهى ذات أهمية كبيرة فى ثقافة الأديب ومتذوق الأدب .

والنصوص الواردة فى الكتاب تفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من حياة العرب فى الجاهلية وعصر صدر الإسلام وبنى أمية ، تصويرا كبيرا له مدلوله التاريخى .

وأكثر روايات القالى عن ابن دريد ، ويظن أن مجالس ابن دريد الواردة فى هذا الكتاب هى مقدمة لظهور فن المقامة فى الأدب العربى ، ومنها مثلا حديث البنات الثلاث اللاتى وصفن فيه ما يحببن من الأزواج وسوى ذلك ، والقالى يمزج النثر بالشعر والخطب بالأمثال ، والحكمة بالوصية ، والنقد بالشرح ، ويأتى بعد ذلك بالطرائف المستجادة ، والفوائد المستحسنة ، مما يروع ، ويسحر .

وبين بحوث الكتاب اللغوية يعقد القالى مطالب يذكر فيها ما قال الشعراء فى الحديث ، أو فى البكاء ووصف الدموع أو فى العناق أو غير ذلك ، ويذكر كثيرا من القصائد المشهورة فى الأدب العربى ، أو يعرض لحديث الشعر أو النثر ، أو لسوى ذلك من الموضوعات الطريفة .

وكثيرا ما يستروح القالى إلى شىء من النقد ، فيذكر مثلا سؤال بعض خلفاء بنى أمية لجرير عن أشعر الناس ، أو يروى مفاضلة بين عمر وجميل فى الغزل ، أو يذكر ما يستحسن ويستجاد من شعر شاعر ، مما يدل على روح النقد الأصيلة ، أو سوى ذلك .

أما ملاحظات البكرى على القالى ، فمع كثرتها نجد بعضها يتصل بتصحيح اسم من الأسماء ، كأن يذكر القالى خطبة لعبد الملك وإنشاده شعر قيس ابن رفاعة ، فيذكر البكرى أن صحة الاسم هى أبو قيس بن أبى رفاعة ، وكأن يحقق الرواية الأدبية ، وكأن يصحح شرحا لنص من النصوص ؛ أو سوى ذلك ، وهذه التنبيهات فى جملتها مفيدة مهمة .

وبعد فان كتاب القالى دائرة معارف فى الأدب القديم ، وهو ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة ، والإحاطة التامة ، والثقافات الواسعة ، وهو من أجل ما ألفه القالى من مؤلفات .

وهو صورة لآداب المشرق فى مختلف العصور إلى آخر القرن الثانى الهجرى ، وآداب المشرق كانت فى الأندلس من الطرف الجميلة ، التى يحتفل بها ، وتروى وتذاع . وليس فى الكتاب طبعاشىء من آداب الأندلسيين وآثارهم ، إنما هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده .

ونحن فى هذه الدراسة الموجزة ننوه بفضل القالى على الأدب ولغة العرب وثقافات الأدباء فى القديم والحديث ، ونوصى الشباب أن يقرأوا « الامالى » ويستفيدوا مما فيه من آثار ونصوص وحكم وآداب ، فهو جدير بالعناية والاهتمام .

(٥)

وللقالى كتاب « البارع » فى اللغة : وهو معجم ابتدأ فيه منذ سنة ٣٣٩ ﻫ وعاونه فيه وراق اسمه محمد بن الحسين الفهرى من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠ ﻫ واستمر فى تأليفه حتى توفى القالى إلى رحمة الله فتولى تهذيبه وراقه مع محمد بن معمر الجيانى . وكان قد أتمه . ولم يستطع تبييضه ونقله . بل نقل كتاب الهمزة. وكتاب الهاء . وكتاب العين . .

والبارع مبنى على حروف المعجم : وجمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء ، واختصر الإسناد عنهم ، وهو يحتوى على ٥٠٠٠ ورقة .

وقد اتبع القالى فيه طريقة الخليل ومنهجه : فبنى « البارع » على مخارج الحروف ، ولكنه لم يسر على ترتيب الخليل . فبدأ بالهمزة ، ثم بالهاء ، ثم بالعين ، مع خلاف يسير فى الترتيب ، ومع مخالفته الخليل فى الأبنية وترتيبها

فهى عند القالى ستة : أبواب الثنائى المضاعف ويسميه الثنائى فى الخط والثلاثى فى الحقيقة ، وأبواب الثلاثى الصحيح . وأبواب الثلاثى المعتل ، وأبواب الحواشى ، وأبواب الرباعى ، وأبواب الخماسى . . والقالى يتبع الخليل فى ذكر الكلمة ومقلوبها . .

ومن البارع قطعتان : أحدهما فى المتحف البريطانى برقم ٥٢٩٨١١ ، والثانية فى المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ وقد صورهما الدكتور فلتون وجعلهما فى كتاب .

والبارع أول معجم يظهر فى الأندلس ، وهو صورة لمعاجم المشارقة ولابتكارهم[1]

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات للأستاذ أحمد عبدالغفور عطار ص ١١٧ و١١٨

ترجمــة الثقافات

فى القرن الثانى والثالث الهجرى

(١)

كان للعباسيين وخاصة فى هذا القرن شغف شديد بالعلوم والآداب ، وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة فى العلم ، الأصيلة فى الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التى امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التى اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولا غنى لملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل مافيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها، ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فلليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفذاذ ، كسقراط وأرسطاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللكلدانيين شهرتهم فى الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة فى النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة فى الطب والفلك ورصد الكواكب . ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدرسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان فى أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق . كما نقلوا من علوم الهند كتباً فى النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى ماورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعوث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسا بور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنو شروان العادل ،

ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد جوستنيان » قيصر الروم لهم ، على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة فى الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون فى هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة فى الإفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة فى العصر العباسى : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمرها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء فى استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ماتعتز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة ، إذ وجدت فى اللغة استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التى أصبحت هى الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخى الفكر حركة ترجمة العلوم فى العصر العباسى من أعظم الحوادث الفكرية فى تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك فى قيمة هذه الحركة الجبارة ، التى كان لها أكبر الآثار فى سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

(٢)

ويمكن تقسيم حركة الترجمة فى هذا القرن إلى ثلاثة أطوار :

فالطور الأول يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أى من

عام ١٣٦ هـ حتى عام ١٩٣ هـ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولى المنصور عنى بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يصله بما لديه من كتب الفلاسفة ؛ واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها إلى العربية [١] ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية [٢] .. ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنيا بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسى وأولاده ، وإبراهيم الفزارى ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السريانى رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذه طبيباً له . . ومن أشهر المترجمين فى عهده ابن المقفع .

أما المهدى والهادى فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهاهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولى الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما فى قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل ماسويه ، وقد ترجمت فى عهده كتب كثيرة فى الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد فى بغداد « دار الحكمة » ،

---

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون و ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى .

(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودى .

التى كانت تحتوى على نفائس الكتب من شتى اللغات . وقد أعيد فى عهده ترجمة الكتب التى سبق ترجمتها فى عصر المنصور .

وفى هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كليلة ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسطاليس فى المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطى فى الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعا كبيراً ، ويسخون سخاء نادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ الآثار فى ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

والطور الثانى لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهى بنهايته ، وكان المأمون عالما متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمه العقلى والعلمى لاحد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد . فأوفد الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج التراجمة ،

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة فى كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ، ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن مايترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمه ، ويرغبهم فى تعلمها ، ويخلو بالحكماء ويأنس بمحاضرتهم . .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة فى هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون فى العرب كبريكليس فى اليونان ، وأغسطس فى الرومان ، فأتم مابدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يبعثوا إليه بالكتب التى تقع فى أيديهم ، وجعل

من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة .

أما الطور الثالث من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ ﻫ

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكيا ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فنشطت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ماترجم في عصره هو الأسمار والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله قد تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعطفا ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزروا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

(٣)

وقد نبغ في هذا العصر طائفة من أشهر المترجمين :

فمن أشهر المترجمين عن اليونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان من جملة المترجمين للمأمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطي إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني . .

ومنهم كذلك قسطا بن لوقا البعلبكي ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب .

ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للمأمون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادي شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ ﻫ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨ ﻫ .

ومنهم حبيش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحاق آل بختيشوع وهم من السريان وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم فى المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ماترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحاق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

ومن أشهر المترجمين عن الفارسية : عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وجبلة بن سالم ، وإسحق بن يزيد ، وهشام بن القاسم ، وسواهم .

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة ، من أشهرها : كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ، وكتاب خداينامه ، الذى ترجمه كذلك ابن المقفع ، وسماه كتاب سير ملوك الفرس ، وترجم كذلك الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، والدرة اليتيمة ، وكتاب التاج فى سيرة أنوشروان .

ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً : عهد أردشير ، وتوقيعات كسرى ، وهزار أفسانه[1] وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة ، وكتاب أدب الحرب ، وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

ومن مشهورى المترجمين عن الهندية : منكه الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد ، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضا ، ونال شهرة واسعة ، واشتدت مخالطته للأطباء . . .

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر

والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسمار . ومما ترجم من كتب الأدب الهندى : كتاب سندباد الكبير ،والصغير ، وكتاب بيدبا فى الحكمة ، وكتاب السند هند — أى الدهر الدهر — فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى .

وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والكلدانية . ومما نقل عن الكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب . . وسواهما من نفائس المؤلفات .

(٤)

وقد أهمل الأدب اليونانى فى الترجمة إهمالا كبيرا ، فقد عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الإسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ؛ وأهم كتب جالينوس فى الطب وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليونانى فى العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئا يذكر من آداب اليونانيين . . فإذا قرأنا الكتب المترجمة نجدها تبحث فى كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نعثر على كتاب أدبى يونانى مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ما لليونان والرومان من آثار أدبية عالية فى القصص والتمثيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات فى علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسمار ، فهذا ابن النديم ينقل فى كتابه الفهرست أسماء كتب للروم فى هذين الفنين ترجمت إلى العربية[1]

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانين ، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، مما تحفل به مصادر الأدب العربى ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار . . .

---

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست .

وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . يروى ابن النديم أن على بن ربن النصرانى نقل كتاباً فى الأدب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب[١] . .

وهذه الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض ما يؤثر منهما إلى العربية ، بعد تجريدهما مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلابسهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف العربى ، وليس فيهما ماينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء فى البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن بعض اليونانيين : ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والتمثيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلياذة هوميروس ، ولا ماشابهها من الآثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها إلى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آدب اليونان ، ولا يقــدرونها حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل فى هــذا مايفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان . فهذا ابن الأثير يذكر فى كتاب « المثل السائر » أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة

---

(١) ٣١٦ الفهرست .

اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ماكتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ورأى أن ماذكره لغو لايستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا[1] .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلاهم كعباً ، وأكثرهم آثارا ، فى الأدب والشعر ؛ فهم فى غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ماهم فى حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسى على العموم قريب من ذوق العربى كقرب مابين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والأدب الفارسى فى جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ماتحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول فى كتاب «المثل السائر» : إنى وجدت العجم يفضلون العرب فى الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفرس فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه . وهذا لايوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر » .

ولم يجد المترجمون حائلا يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

إلى العربية ، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحيانا إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أممهم ، التى تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأمجاد وأبطالهم المغاوير ، كما كانو يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة ، لتكون مادة للمفاكهة والسمر .

وفى هذا جميعه مايدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير للأدب اليونانى فى الأدب العربى . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية .

الامتزاج الثقافى

بين العرب والعناصر الأجنبية

(١)

فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ، وخضعت لسطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ، ومدنية باهرة، وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفى أقل من قرن أصبحت دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غربا إلى الهند والصين شرقاً ، وحكم العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة فى الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب فى السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ؛ وداخلوهم مداخلة شديدة ؛ حتى نشأ جيل جديد من المولدين ؛ الذين نسلوا من آباء عرب وأمهات أعجميات :

وكان العرب قبلا هم السادة والحكام ، وبيدهم شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ماهو عربى ، ويضعون الأعاجم فى منزلة دون منزلتهم . ، فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالى يرفعون رءوسهم ويعتزون بكرامتهم . ويمنون بأياديهم على الخلافة . وينادون بأن لافضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأعرق منهم سلطاناً . وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد . وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة ، وعماله وولاته ... وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغلوا فى أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالى ، أثره البعيد .

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ، بل الخلفاء والأمراء كانوا من أعجميات .

وكان للجوارى والقيان اللواتى كثرن فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير فى زيادة الامتزاج والاختلاط ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن فى الأسواق ، ويهدين كما تهدى الطرف النادرة ، وكانت

هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكان من أظهر العناصر التى زاد امتزاجها بالعرب : الفرس والروم والترك .

فالفرس كانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، وكانت لهم المنزلة الرفيعة فيها طوال هذا العصر ..

وأما الأتراك فكانوا يلون الفرس فى المكانة ثم قربهم إليه المعتصم واصطفاهم ، فزادخطرهم ، وقويت شوكتهم ، وأصبحوا أولى النفوذ فى الخلافة ، وبلغ بهم البطر والإفساد أن قتلوا الخليفة المتوكل على الله ، ذلك لما كانوا عليه من ضعف فى الأخلاق ، وعبث بالنظام ، وإفساد للأمن ، ومن شراهة فى جمع المال ، وحب للهو والشهوات ، على أن هؤلاء لم يتميزوا بسمة إلا بالنظافة والجمال،وحب الجندية والفروسية ؛ وكانوا ينتصرون لمذهب أهل السنة ؛ ويكرهون الاعتزال والفلسفة والجدل فى الدين .

وأما الروم فقد كثروا فى بيوت السادة والمترفين ، وكان منهم الغلمان والجوارى ، وسارت شهرتهم بالجمال والظرف والذكاء ، وثقوب الذهن وحدة الخاطر ، والإلمام ببعض الثقافات .. وإلى جانب هؤلاء وجد الزنوج الذين كانوا يجلبون من سواحل إفريقية الشرقية ، ليعملوا فى الزراعة والصناعة، وفى بيوت الطبقات المتوسطة .

ولقد نشأ عن تقريب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال، وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا فى غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شىء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاط البعيـــد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وتربطها وشائج من المودة

والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

(٢)

ولاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، فى حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جلية فى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى العقول والأجسام ، وشتى نواحى المعيشة والحياة ، مما نستطيع تصويره فيما يلى :

انتشرت العادات الفارسية فى المجتمع فى هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذى صورناه ، وذلك الامتزاج الذى شرحناه ، سواء فى الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والنرد ، والخروج إلى البوادى والقرى للراحة أو الصيد ؛ واصطحاب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان . وأخذ العرب يحاكون الفرس فى العناية بموائدهم . ووضع الزهور والرياحين عليها . وفى تنسيق البيوت . وإعداد الحجرات ، وفى الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً . ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان . حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والهدايا .

وذاعت الأزياء الفارسية : من قلانس وأقبية . وعمائم . وسواها .

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف ، حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة فى غير طائل . اللهم إلا إشباعا للنفس . وإرضاء لداعى اللهو واللذة . فلا عجب أن غالوا فى مآدبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة . حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بزبيدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لاتتناهى . وكذلك فعل المأمون فى بنائه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ . فقد أعطاها فى صداقها ألف حصاة من الياقوت . وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة .

وأولعوا بالغناء . وتفننوا فيه . وأبدعوا فى ألحانه وجددوا فى آلاته . وأكثروا فى مجالسه من الملح والعبث والشراب .

وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها . وبهجة منظرها . وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادنها وشتى مظاهر الحضارة فيها .

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديدا : فالنفوذ والثراء وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم .

وقد استلزم الترف : المغالاة والبنيان ، والتنافس فى تشييد القصور ، حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وأنفق المتوكل على بناء « الجعفرى » الملايين من الدنانير . وأكثروا من تشييد البرك والحدائق والدور والقصور وبيوت العبادة ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم .

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت المناصب الرفيعة فى الخلافة ، كمنصب الوزارة الذى تقلده فى هذا العصر أفذاذ من الرجال ، كأبى سلمة الخلال وزير السفاح ؛ وأبى أيوب الموريانى وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدى ، والبرامكة الذين وزروا للرشيد ، وبنى سهل الذين وزروا للمأمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسى ، والتقاليد والعادات والنظم الفارسية فى دولة الخلافة .

(٣)

وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد فى العقول والأفكار ، فاتسعت الثقافة ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ، يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ، الذى دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم القديمة من فرس ويونان ورومان وسريان وسواها ، وأخذ العرب يتحضرون ! وينشئون المدارس ويشيدون

خزائن الكتب ودور الحكمة ، ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف سواهم من الشعوب .

أما أثره فى الأجسام فهو غير خفى أو منكور ، فلا شك أن العربى قد صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة فى الجسم وسلامة فى البدن ، ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم[1] ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والحذق فى الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ومميزات .

(٤)

وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد والزندقة التى حاربها المهدى والرشيد حربا لاهوادة فيها ، كما شاعت الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، وكان للقيان والجوارى أثرهن فى هذا الميدان .

وإن كنا لاننكر أن الامتزاج قد أكسب العربى سعة أفق ، ورحابة صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لايستأثر بالخير ، بل يشرك معه فى الفضل سواه . وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار لين العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثا مهذباً ، يدين بالمحبة والإخاء .

وبعد فقد كان لهذه المظاهر العديدة التى نشأت عن الامتزاج بين العرب والعجم ، أثرها الشديد فى تنوع الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، وتوزعها بين نسك ولهو ، وترف وفقر وإيمان وإلحاد ، وفى اصطباغها بصبغة التجديد وانطباعها بطابع قوى من الحضارة والمدنية .

---

(١) الابن الذى يولد من أب عربى وأم أعجمية يسمى « هجينا » . والذى يكون من أب عجمى وأم عربية يسمى « مقرفا » .

(٥)

وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة فى تهذيب الأفكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر ، حتى ليلمس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربى فى هـــذا العصر والأدب فى العصور السالفة .

فلقد نشأ بتأثير هذا الامتزاج ـ فى الأدب ، فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون فى الأدب ، كالإغراق والمبالغة فى وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولا شك أن تفشى هذه الألوان وذيوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد ، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية . ونزوات طائشة . ومتع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية . فرأى العرب طراز القصة فى النثر ، وأكبوا عليها ، وأعجبوا بهـا . حتى لقد نظمها أبان اللاحق شعرا .

وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف فى الأدب العربى . ونما نموا واضحا . واتسع مجاله . وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة المختلفة من قصور ورياض . وأنهار وبرك وغدران . تتوالى صورها أمام أنظارهم ، فتلهب شاعريتهم ، وتسمو بأفكارهم ، وتحلق بأخيلتهم .

وهذه أيضا عادات العجم وتقاليدهم وأزياؤهم ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم ، ومرابع جواريهم وغلمانهم . كل ذلك قد أطلق الألسنة ، وفتق الاخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس ، فأخذوا يصفون هذه الألوان التى بهرهم بريقها ، وأسرهم جمالها ، وأخذ بألبابهم

مافيها من حسن ونضارة، فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف، وعبروا عنها أجمل تعبير.

ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته، وعمق الفكرة وتسلسلها، وحسن الاستقصاء، وكثرة الاستطراد، وبراعة التحليل. فظهر ذلك بصورة واضحة فى آدابهم، ومأثور أشعارهم. ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى فى القصيدة العربية، لكثرة الاستطراد والاستقصاء والتحليل. كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعانى الدقيقة، والأخيلة البعيدة والفكرة العميقة.

ومما زاد فى ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هـــذا العصر كانوا يرجعون إلى أصول غير عربية، كبشار وأبى العتاهية وأبى نواس ثم ابن الرومى وغيرهم.

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس فى نشر ثقافتهم وآدابهم والتمكين لمعارفهم فى البيئة العربية، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والتمكن من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة. فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم فى الحكم وطرائقهم فى السياسة، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه.

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب: «واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ماتسمون إليه هممكم» وقال الرشيد للكسائى معلم بنيه: «رونا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بآداب الفرس والهند».

وأصبح للثقافة الفارسية فى بغداد والحواضر العربية مقام كبير، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التمكين لها وإشاعتها، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية.

(٦)

ويظهر أثر الثقافة الفارسية فى لغة العرب فيما يلى :

١ — الألفاظ الفارسية التى عربت ونقلت إلى العربية ، وهى كثيرة لا حصر لها .

فقد أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريب موجوداً منذ العصر الجاهلى ولكنه زاد ونما فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

٢ — قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التى زادت فى ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع فى مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ — ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية فى الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره فى زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية فى الأدب العربى تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلى :

١ — كانت زعامة التجديد فى الأدب العربى شعره ونثره فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد فى النثر فى هذا العصر ، وبشار وأبو نواس شقا طريق التجديد للمولدين فى الشعر . . وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير ما فى بلاغات العرب والفرس جميعاً من معان وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا

آثاراً واسعة فى الشعر والنثر ، فجددوا فى المعانى والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب فى عهد بنى أمية عربياً خالصاً ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح فى عهد بنى العباس يزدان بأحلى وأروع مافى أدب الفرس من معان وأخيلة فتعددت الأغراض ، واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنق فى التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، يقول الجاحظ عن موسى بن سيار ، وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص فى هذا العصر : «كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية » ، ومثله كثير ممن أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وسواهم ، ممن كان لهم فضل كبير فى رقى الأساليب العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعانى والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

٢ — وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعانى الفارسية ترشد العربى إلى أمثل طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية .

وكان العتابى الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعانى والأخيلة ، وسئل : لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، فالبلاغة لنا والمعانى لهم .

ويقول أبو هلال العسكرى فى رسالته : « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » : « للفرس أشعار لاتضبط كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس »

٣ — هذا إلى ماجد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصى ، وأدب الزهد . وأدب المقامة . وسواها .

وإن كنا لا ننكر ماسرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية : من ضعف الملكات وكثرة العناية بالبـــديع الذى يحول دون البساطة والاعتماد على الطبع .

(٧)

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب . ودخل العرب بعض جهات من الهند . وبدأ يظهر أثر هـذا الاختـلاط . فتسربت الثقافة الهنـدية إلى العالم العربى ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربيـة مباشرة بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التى كانت قد التهمت من قبل الـكثير من المعارف الهندية .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالحـكمة التى كان الهنود معدنها ، وبالإلهيات والرياضيات .

يقول القفطى فى « أخبار الحـكماء »[(١)] : والهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد ، فخمة الممالك . قد اعترف لها بالحـكمة ، وأقر بالتبريز فى فنون المعرفة ، كل الملل السالفة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحـكمة وينبوع العدل والسياسة . ولبعد الهند من بلادنا قلت تآليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم » .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكى بعض الأطباء من الهند أمثال منكه . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا فى الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ؛ كأبى عطاء السندى الشاعر ؛ وكابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور : وسواهما .

وللهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء فى

---

(١) ص ٢٦٦ .

البلاغة والأدب . . قيل لبهلة الهندى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها ، فترجمت فإذا فيها ماترجمته : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوقة . . . » الخ[1]

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود فى الفلك . .

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير.

على أن أثر الثقافة الهندية فى لغة العرب كان ضئيلا يتمثل فى هذه الألفاظ الهندية التى عربت ، مثل : الزنجبيل ، والكافور ، والآبنوس ، والببغاء ، والخيزران ، والإهليلج ؛ وسوى ذلك من أسماء الحيوانات والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها فى أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص والحكم الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم فى الفلك .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء فى غير الشعر ، يقول ابن قتيبة : قرأت فى كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ماليس فيه خصب ولا أمن » . إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربى من الثقافة الهندية .

(٨)

وحين ازدهرت النهضة العلمية فى العصر العباسى ، وشجع العلماء ترجمة

---

(١) ٧٩ : ١ البيان والتبيين للجاحظ .

العلوم ، أخذ السريان يترجمون الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت الكتب الفارسية المترجمة الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم . ثم نقل إلى العربيةالعديد من مؤلفات اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية فى لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة عربت .

وقد أثر المنطق اليونانى فى الفكر العربى تأثيراً كبيراً إذا أصبح لهسلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير فى عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ؛ فقد قدموا معانى جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية فى أدب العرب يتجلى فى نقل بعض الحكايات والأسمار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعانى الفلسفية ، فتأثر بها الأدب العربى واكتسب منها سعة فى الخيال وتهذيبا فى الفكر .

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربى قد أفاد من المعارف اليونانية ، ولم يستفد من الأدب اليونانى نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روائعه .

ابن المقفع وأثره فى الفكر العربى

(١)

فى أواخر دولة بنى أمية وأوائل دولة بنى العباس ، عاش ابن المقفع (١٠٦ — ١٤٣ هـ) ، كاتبا مشهورا ، وأديبا مرموق المكانة ، وحكيما يكتب فى الأخلاق والآداب والحكمة ، ومفكرا يدفع الفكر العربى إلى الأمام خطوات كبيرة .

وكان ابن المقفع من أصول فارسية ، وقد نبغ فى عصره كثير من أترابه ولداته من أبناء الفرس ، الذين أسلموا وتعلموا العربية ، مثل : عنبسة الفيل النحوى ، وسيبويه ، وحماد الرواية ، وزياد الأعجم ، وأبو العباس الأعمى ، الشاعران ، وبشار ، ومروان بن أبى حفصة .

وكانت كنية ابن المقفع قبل أن يسلم « أبا عمرو » واسمه روزبة وبعد أن أسلم سمى عبد الله وكنى بأبى محمد ، وكان آباؤه من خوزستان (الأهواز) وهى من أقاليم بلاد الفرس ، قريبة من البصرة ، ولذلك نزلتها القبائل العربية منذ الفتح الإسلامى ، وانتشرت بين أهله اللغة العربية ، وكانت البصرة كذلك حلبة العرب ، ومجمع الثقافة ، وموطن المربد .

وكان اسم والد ابن المقفع « داذويه » ، ولاه الحجاج خراج بلاد فارس فأخذ شيئا من مال السلطان فضربه الحجاج ، حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع وعرف ابنه بابن المقفع .

(٢)

ولد ابن المقفع نحو سنة ١٠٦ هـ ، ونشأ بالبصرة ، بين مواليه آل الأهتم ، وكانت البصرة مركزا ثقافيا مهما ، وفيها المربد الذى خلف عكاظ فى حمل رسالة الأدب والشعر ، وكان يؤمه الشعراء والرواة ، فينشدون الشعر ، ويعقدون مجالس الأدب والمناظرة والمفاخرة والنقد ، ومن أشهر حلقاته الأدبية حلقة جرير ، والفرزدق ، وراعى الإبل النميرى ، ومن أعلام البصرة

فى عصر ابن المقفع : الخليل بن أحمد ، وبشار ، وصالح ابن عبد القدوس وسيبويه ، والحسن البصرى ، وواصل بن عطاء .

وقد كسب ابن المقفع من بيئة البصرة الأدبيـــة الكثير من ثقافات الأديب ، وكذلك من آل الأهتم مواليه الذين عرفوا بالبلاغة والخطابة والشعر منذ الجاهلية ، فخرج بليغا فصيحا مشهورا باللسن والأدب ، وبالحذق والذكاء . وكان يأخذ الفصاحة عن ابن يزيد الأعرابى ، ويتقن الفارسية ، إتقانه للعربية ، ولم يكن يعرف شيئا من اليونانية ، وإن زعم بعض من كتبوا عنه ذلك .

وأخذ ابن المقفع يكتب فى عصر بنى أمية وهو شاب لا يزيد عمره على العشرين عاما ، فكتب لداود بن هبيرة والى الأمويين على العراق ، كما كان عبد الحميد الكاتب يكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . واكتسحت جيوش العباسيين العراق ، وقتل داود وأهله فيمن قتل ، ولكن ابن المقفع نجا من القتل بفراره فى ذلك الحين .

ثم خدم ابن المقفع أعمام أبى العباس السفاح ـ أول خلفاء الدولة العباسية ـ فخدم لسليمان[1] ولعيسى[2] ولإسماعيل[3] : أبناء على بن عبد الله بن عباس ، وعلى يدى عيسى أسلم .

وترجم للمنصور كتابا فى المنطق عن الفارسية . ولما ثار عبد الله بن على والى الشام على ابن أخيه المنصور بالشام والجزيرة عام ١٣٧ هـ ، وهزمته

---

(١) كان يلى البصرة وأعمالها وقد ظل واليا عليها من عام ١٣٣ هـ إلى عام ١٣٩ هـ ، ومات عام ١٤٢ هـ ، فى السنة التى قتل فيها ابن المقفع بأمر سفيان بن معاوية أمير البصرة .

(٢) كان يلى ولاية كرمان للسفاح .

(٣) كان والى الاهواز ثم الموصل .

جيوش المنصور ، فر إلى البصرة ، واحتمى بأخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما فأبيا أن يسلماه له إلا بأمان يمليان شروطه ، وكتب ابن المقفع صيغة الأمان ، ومما جاء فيه : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبدالله فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته ، فأحفظ ذلك المنصور ، وكان من الأسباب التى أدت إلى مصرعه .

ولما تولى سفيان بن معاوية عام ١٣٩ ه ولاية البصرة ، لم يبال به ابن المقفع — فكان يسخر منه ، ويهزأ به ، ويثير عليه الناس ، فنقم عليه سفيان ذلك ، وأخيراً قتله ومثل به عام ١٤٢ ه ، وبذلك انتهت حياة عبقرى خالد الذكر ، وهو ابن المقفع ، عن ست وثلاثين سنة ، وترك ابنا اسمه محمد .

(٣)

١ — كان ابن المقفع كاتبا أديبا حكيما يجمع بين ثقافات الفرس والعرب وحكمة الهنود وفلسفة اليونان التى دخلت إلى الفكر الفارسى من قديم وإلى الفكر العربى فى أواخر عصر بنى أمية .

وقد ترجم إلى العربية أهم الكتب الفارسية فى الأخلاق والآداب والحكمة والسياسة ، مثل كتاب « خداينامه » فى سير ملوك العجم وهو مفقود ، وكليلة ودمنة ، وكتاب « التاج » فى سيرة أنوشروان ، وهو مفقود وكتاب « مزدك » وهو كتاب أدب وضع للتسلية ، ويماثل كتاب « كليلة ودمنة » ، وهو مفقود .

وكان ابن المقفع يترجم هذه الكتب من الفارسية [1] فى أسلوب عربى

(١) كانت اللغة الفارسية قد مرت إبان ذلك بطورين :
الأول طور اللغة الفارسية القديمة (٥٥٠ — ٣٣٠ ق م) .

والثانى طور الفهلوية ، التى ازدهرت فى عصر الساسانيين ، وعنها ترجمت الكتب إلى العربية ، وقد ظلت حية إلى ما بعد الفتح الإسلامى بنحو قرن من الزمان .

مبين ، لا نظير له فى جلالته وروعته وفصاحته ونصاحته وإشراقه .

وألف ابن المقفع بعض الكتب . وله رسائله التى كان يكتبها للأمراء . وتكاد شهرة ابن المقفع بالترجمة تفوق شهرته بالتأليف لنبوغه فى فن الترجمة مع عظمة أسلوبه فيها ، ولأن عصره كان عصر ازدهار الترجمة من شتى اللغات إلى اللغة العربية — ومن مؤلفات ابن المقفع كتابه : الأدب الكبير والأدب الصغير وهما مشهوران ، ويتحدث ابن المقفع فيهما فى الأدب والحكمة والمواعظ والاجتماع والسياسة ووظائف السلطان .

٢ — وكان ابن المقفع على جانب كبير من نبل الخلق والوفاء للأصدقاء ، وكلمة ابن المقفع المأثورة وهى : « ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحيتك ، ولعدوك عدلك ، وصن بدينك وعرضك عن كل أحد » تمثل شعاره فى الحياة ومعاملة الناس ، وقد شهر ابن المقفع بالوفاء إلى حد كبير ، حتى إن عبد الحميد الكاتب حين لجأ إليه بالبحرين بعد مقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وانقراض الدولة الأموية ، فاجأه الطلب وهو فى دار ابن المقفع ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبدالحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، إشفاقا على صديقه ، وأوشك الجند أن يفتكوا بابن لمقفع لولا أن صاح بهـــم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات ، ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل عام ١٣٢ هـ .

٣ — ونزعات ابن المقفع فى الحياة ، أو فلسفته الاجتماعية ، تتجلى فى أدبه بوضوح ، فهو يؤمن بالأخلاق الكريمة ، والمبادىء المثلى والآداب الإنسانية .

ويدعو إليها فى أدبه وحكمته : ومن ثم نجده أكثر الكتاب دعوة إلى الرحمة والحب والايثار والخير والفضيلة والبر والمعروف والنبل والأريحية والشرف والعدل .

وقد استمد حكمته من مصادر عديدة : من أخلاق العرب ، وآداب الإسلام ، وفلسفات الهند والفرس واليونان .

وكان يعظم من شأن الدين ، ويرى أن الحكومة يجب أن تقوم على العدالة التامة فى معاملة الرعية ، وبصلاح رئيس الدولة تصلح الرعية ، وبفساده فسادها . وآراء ابن المقفع وآدابه مشهورة فى طاعة السلطان ومداراته ، وفى التنفير من الحسد والكذب والرذائل عامة ، وفى الحض على الشجاعة والكرم والشرف . ومن أجمل ما يؤثر له فى ذلك الباب قوله : « إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فتكون ثلمة من الثلم يقتحمون عليك منها ، وبابا يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ، ويضحكون منك لها ، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له ممدوح ، والقابل له معيب » .

وله رأى فى المرأة صوره فى قوله : « إياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لاتثق به عليهن ، فان استطعت ألا يعرفن عليك فافعل ، ولا تملكن امرأة من الأمر ماجاوز نفسها ، فان ذلك أنعم لحالها ، وأرخى لبالها ، وأدوم لجمالها ، وإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعد بكرامتها نفسها ، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء فيمللنك وتملهن ، واستبق من نفسك بقية ، فإن إمساكك عنهن وهن يردنك باقتدار خير من أن يهجمن عليك على انكسار ، وإياك والتغاير فى غير موضع غيرة ، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم » .

٤ — وقد اتهم ابن المقفع فى عصره بالزندقة ، وليس لذلك أثر فى كلامه وكتبه وأدبه ولعل هذه التهمة قد ألصقت بالرجل إلصاقا رغبة فى الانتقام منه وقتله لبواعث سياسية محضة ، وقد اتهمه معاصروه بأنه عارض القرآن الكريم بكتابه « الدرة اليتيمة » . وذلك كله محض اختلاق وافتراء على الرجل .

(٤)

وألف ابن المقفع وترجم كثيرا من الكتب ، ومنها :

١ — كتاب الدرة اليتيمة ، وهو من مؤلفات ابن المقفع[١] وقد ضرب أبو تمام ببلاغته المثل فقال للحسن بن وهب :

ولقد شهدتك والكلام لآلىء تؤم ، فبكر فى الكلام وثيب
فكأن قسا فى عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكثير عزة يوم بين ينسب وابن المقفع فى اليتيمة يسهب

وكتاب اليتيمة حتى اليوم مجهول ، ويظن البعض أنه هو كتاب الأدب الكبير .

٢ — جمل فى الحكم ورسائل متفرقة وتحميدات ، نشرها الأستاذ محمد كرد على فى كتاب « رسائل البلغاء » .

٣ — وله رسالة فى الصحابة وهى فى كتاب «رسائل البلغاء » . ويتحدث فيها عن حاشية السلطان وأعوانه والآداب التى يجب أن يلتزموا بها ، فهى رسالة فى الأدب السياسى .

٤ — كليلة ودمنة ، وهو من أمتع الكتب وأعظمها وأطرفها ، ويجرى على ألسنة الحيوانات لاعتقاد البراهمة بتناسخ الأرواح وتقديسهم بعضها ، وقد ألفه بالسنسكريتية فيلسوف هندى يسمى بيدبا للملك دبشليم الذى يقال إنه تولى بعد فتح الاسكندر ، وكان يشتمل على اثنى عشر بابا : باب الأسد والثور ، وباب الحمامة المطوقة ، باب البوم والغربان ، باب القرد والغيلم[٢] ، باب الناسك وابن عرس ، باب الجرذ والسنور ، باب الملك والطائر فنزه ، باب

---

(١) ويذكر الباقلانى فى إعجاز القرآن أنه مأخوذ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة
(٢) السلحفاة الذكر .

الأسد وابن آوى وهو الناسك، باب اللبؤة(١) والإسوار(٢) ، باب إيلاذ(٣) وبلاذ(٤) وايراخت(٥) باب السائح والصائغ ، باب ابن الملك وأصحابه .

وترجم الكتاب إلى لغة التيبت ، ثم فى القرن السادس الميلادى للغة الفهلوية لغة بلاد فارس ، وذلك عن السنسكريتية . ترجمه أبرويز بن أزهر بأمر كسرى أنوشروان وزيد فى الترجمة الفهلوية أبواب ثلاثة : مقدمة برزويه، باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند ، باب ملك الجرذان .

ثم ترجم الكتاب عن الفهلوية إلى السريانية نحو عام ٥٧٠ ، وإلى العربية نحو عام ١٢٥ هـ ، على يدى ابن المقفع الذى زاد فيه ستة أبواب : مقدمة الكتاب على لسان على ابن الشاه الفارسى ، عرض الكتاب لابن المقفع ، باب الفحص عن أمر دمنة ، باب الناسك والضيف ، باب مالك الحزين والبطة، باب الحمامة والثعلب ، ومالك الحزين .

وضاع أصل الكتاب باللغة الهندية والفهلوية ، ولم يبق من ترجمات الكتاب غير الترجمة العربية ، وعنها ترجم الكتاب إلى كثير من اللغة العالمية.

• ومن الطريف أن أبان بن عبد الحميد الكاتب أراد أن ينظمه بإشارة البرامكة ، فنظم فصولا منه ؛ ومن قوله فيه :

هذا كتاب أدب ومحنة   وهو الذى يدعى كليلة دمنة
فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

ونظمه آخرون سواه : كالفضل بن سهل وعلى بن داود ،وهذه المنظومات مفقودة اليوم .

ومن منظومات الكتاب الباقية : نظم ابن الهبارية المتوفى عام ٥٠٤ هـ وهو مطبوع ، واسمه نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة ، ونظم ابن مماتى المصرى المتوفى عام ٦٠٦ هـ للكتاب وهو مخطوط .

---

(١) أنثى الأسد . (٢) قائد الفرس . (٣) اسم ملك . (٤) اسم وزيره
(٥) اسم الملكة .

والكتاب ألفه الفيلسوف الهندى بيدبا لدبشليم ملك الهند وكان سبب تأليفه أن دبشليم كان ملكا طاغية ظالما سار فى قومه سيرة سيئة ، حتى مقته الشعب ، فلما رأى بيدبا الفيلسوف ماحل بالشعب على يدى هذا الطاغية ، جمع تلاميذه واستشارهم فى الدخول على الملك لإسداء النصح له ، فقالوا له : أنت أستاذنا ونحن لك تبع غير أننا نخشى عليك من شره ، فإن السباحة مع التمساح تغرير ، قال بيدبا : إن تقويم أخلاق الملك واجب علينا ، وإنى أكره أن يقال : كان بيدبا الفيلسوف فى زمن دبشليم الطاغى فلم يرده عما كان عليه .

ثم إن بيدبا قام عن تلاميذه ، ولبس مسوحه ، وذهب إلى قصر الملك واستأذن من صاحب إذنه فى الدخول عليه . فأذن له . فلما مثل بين يديه واستأذنه فى الكلام ، وأذن له به ، أخذ بيدبا ينصح الملك ، فاغتاظ الملك وأمر بحبسه ، ثم حدث أن غير الملك رأيه فى بيدبا ، وأمره أن يؤلف كتابا ، فيه نصح للخاصة وتسلية للعامة ، فألف بيدبا كتاب كليلة ودمنة ، وجعله على ألسنة الطيور والبهائم وترجم الكتاب إلى الفارسية .

وبترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب عن اللغة الفارسية أضاف إلى المكتبة العربية ثروة أدبية نادرة .

ومن فصول الكتاب فصل عن « الناسك والضيف » ، يبين فيه أسلوبه فى الترجمة ، وقد جاء فيه :

قال الفيلسوف : زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد ، فنزل به ضيف ذات يوم ، فدعا الناسك لضيفه بتمر ليطرفه به ، فأكلا منه جميعاً . ثم قال الضيف : « ما أحلى هذا التمر وأطيبه ! فليس هو فى بلادى التى أسكنها ، وليته كان فيها » ثم قال : أرى أن تساعدنى على أن آخذ منه ما أغرسه فى أرضنا ، فإنى لست عارفاً بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها ، فقال له الناسك : ليس لك فى ذلك راحة ، فإن ذلك يثقل عليك . ولعل ذلك

لا يوافق أرضكم. مع أن بلادكم كثيرة الأثمار، فما حاجتها، مع كثرة ثمارها، إلى التمر مع وخامته، وقلة موافقته للجسد؟، ثم قال الناسك: «إنه لا يعد حكيما من طلب مالا يجد، وإنك سعيد الجد إذا قنعت بالذى تجد، وزهدت فيما لا تجد.

وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية، فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه، وعالج فى ذلك نفسه أياما، فقال الناسك لضيفه: «ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك وتكلفت من كلام العبرانية، فى مثل ما وقع فيه الغراب،» قال الضيف: وكيف كان ذلك؟.

قال الناسك: زعموا أن غرابا رأى حجلة[1] تدرج وتمشى، فأعجبه مشيتها، وطمع أن يتعلمها. فراض على ذلك نفسه، فلم يقدر على إحكامها، وأيس منها، وأراد أن يعود إلى مشيته التى كان عليها، فإذا هو قد اختلط فى مشيته، وصار أقبح الطير مشياً».

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذى طبعت عليه، وأقبلت على لسان العبرانية، وهو لايشاكلك، وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لسانا، فإنه قد قيل إنه يعد جاهلا من تكلف من الأمور مالا يشاكله، وليس من عمله، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل.

(٥)

كان ابن المقفع من أشهر بلغاء الناس فى عصره، ويعد فى طليعة فحول الكتاب والبلغاء الذين أدركهم زمانه. من أمثال: عمارة بن حمزة، وأنس ابن أبى شيخ، وسالم، ومسعدة، وأحمد بن يوسف، وعبد الحميد الكاتب.. وهو أكتب كتاب العربية فى الأدب والحكمة. ومذهبه فى الكتابة - أعدل المذاهب وأقومها، لطلاوته وسلاسته، وبعده عن الكلف والسجع، ولايوجد له نظير فى طريقته إلا عند الجاحظ وعبد الحميد وسهل بن هرون، وقليل من أمثالهم.

---

(١) الحجلة بالتحريك: طائر يمشى قفزاً كما يمشى الغلام على رجل واحدة.

وقلما أوتى إنسان ما أوتيه ابن المقفع من الذكاء والثقافة والفصاحة ، وقال معاصروه عنه : إنه لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع . واجتمع الخليل وابن المقفع فمكثا ثلاثة أيام ولياليهن يتحادثان ، فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن علمه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه .

ووصف الجاحظ ابن المقفع فقال : كان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير[1] وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله .

ويعد ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتاب فى عصر الدولة العباسية ، وكانت طريقته تعتمد المؤاخاة بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية .

وتغلب الحكمة على ابن المقفع فى كتبه ومعانيه ، التى كانت تهدف إلى تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق .

ويبدو فى معانى ابن المقفع ترتيب الفكرة وحسن تقسيمها دون مبالغة أو غلو .

وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه وعذوبة ألفاظه ، حتى تبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان ؛ ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه . ولا ألفاظه تستهلك معانيه ، وكان يقدر اللفظ على المعنى تقديراً جميلا ، وكان يقول : إن الكلام يزدحم فى خاطرى فأقف لتخيره .

وأسلوب ابن المقفع يمتاز بالوضوح والسهولة والسلاسة والجزالة مع

---

(١) يعد بعض الباحثين ابن المقفع أول من شرع للناس طريقة تدوين التاريخ فى اللغة العربية بترجمته كتاب « خداينامه » فى سير ملوك العجم ، فكان مثالا للعرب فى كتابة التاريخ .

العذوبة والجمال ، وكان يعرف البلاغة بأنها « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » وينهى عن تتبع الوحشى والغريب : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر » ، وكان يحرص على السهولة وينأى عن الابتذال مما تراه فى كلمة قالها الكاتب ، وهى : « عليك بما سهل من الألفاظ ، مع التجنب لألفاظ السفلة » ، وكذلك كان يقول : « الإيجاز هو البلاغة » ، وله كبير معرفة بمنزلة الإيجاز فى البلاغة .

وكان ابن المقفع ينظم الشعر قليلا ، قيل له : لم لا تقول الشعر ؟ قال : الذى أرتضيه لا يجيئنى ، والذى يجيئنى لا أرضاه ، ونسب له أبو تمام فى الحماسة أبياتاً ثلاثة قالها فى رثاء صديقه يحيى بن زياد الحارثى :

رزئنا أبا عمرو ، ولا حى مثله ... فلله ريب الحادثات بمن وقع

فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ... ذوى خلة ما فى انسداد لها طمع

فقد جر نفعا فقدنا لك أننا ... أمنا على كل الرزايا من الجزع

وعلى الجملة فقد كان أمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول : « البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » وكان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعا فى نيل البلاغة هو العى الأكبر ، وينصح الكتاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة .

وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد فى توخى السهولة وسلامة التعبير مع العناية بإجادة المعنى بين الكتاب من أهل زمانيهما ومن بعدهما ؛ وإنما صعبت عبارة ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ونحوهما لأنه ساقها مساق الفلسفة . ويغلب على أساليبه فيهما القياس المنطق وأفكار الفلاسفة الدقيقة التى قلما تظهر للقارىء إلا بعد الكد ، ويمتاز عبد الحميد — وإن لم يكن ابن المقفع دونه فى البلاغة — بوضعه الأنظمة للرسائل الديوانية .

مؤرخ الحضارة الإسلامية

(١)

يعد ابن خلدون من أعلام الفكر الإسلامى ، وإمام المؤرخين العرب منذ القرن الثامن الهجرى حتى اليوم وكان تراثه خير أستاذ تتلمذ عليه أعلام البيان فى عصر النهضة الأدبية الحديثة فى مصر وسائر بلاد الشرق العربى . .

ومقدمة ابن خلدون تراث جليل خالد يمتاز بالجدة والابتكار ، وهى تسجل منهاجا جديدا فى فهم التاريخ وتحليله ونقده ، وفى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها . . وموضوع المقدمة ، كما يصفه ابن خلدون نفسه هو « العمران البشرى والاجتماع الإنسانى » . وقد تحدث ابن خلدون فيها عن : العمران البشرى على الجملة وأصنافه ، والعمران البدوى ، وذكر القبائل والأمم البربرية ، وتحدث عن الدول والخلافة والملك ، وذكر المراتب السلطانية وعن العمران الحضرى ، والبلدان والامصار ، وعن الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه . وعن العلوم واكتسابها وتعلمها . .

وبحوث ابن خلدون فى المقدمة هى تمهيد لدراسة التاريخ وفهمه ، وهى بحوث جديدة كل الجدة ، وان كانت آراء الفارابى فى المدينة الفاضلة . واخوان الصفاء فى رسائلهم ، تعد تمهيدا موجزا صغيرا لبحوث ابن خلدون : كبحوث الفارابى عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ، وكتقسيم اخوان الصفا للعلوم والصنائع وبحثهم عن تأثير طبيعة البلدان فى الاخلاق . . ولكن بحوث الفارابى وإخوان الصفاء لها منهجها الفلسفى ، حيث يتناول ابن خلدون هذه البحوث والموضوعات من الجانب الاجتماعى .

وتشمل بحوث ابن خلدون فى المقدمة جوانب من علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ والاقتصاد السياسى .

وقد عنى المستشرقون عناية خاصة بالجانب الاجتماعى من تفكير ابن خلدون وتراثه ، وعد « فون كريمر » المستشرق النمسوى « ابن خلدون » مؤرخا للحضارة الإسلامية ، وعده دى بوير فيلسوف ، ولكن الاتجاه العام كان إلى دراسة فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، التى تسمى اليوم بحوثه فيها بعلم الاجتماع ، الذى سبق فيه أوجست كونت ، وفيكو ، ومكيافللى من أعلام الاجتماع فى أوربا . ولقد سبق مكيافيللى ومونتسكيو وفيكو إلى الدرس النقدى للتاريخ ، كما سبق ماركس وسواه إلى نظريات علم الاقتصاد السياسى . . والمقدمة تسبق كتاب مكيافيللى الذائع « الأمير » بأكثر من قرن من الزمان وهى أوسع دراسة ، وأرحب أفقا ، وأغزر مادة ، على الرغم من ان المقدمة قد ألفت عام ١٣٧٧ م ، كتاب الأمير ألف عام ١٥١٣ م

وقد نشرت المقدمة فى مصر عام ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨ م ، وفى بيروت عام ١٨٧٩ وفى باريس عام ١٨٥٨ م بإشراف المستشرق كاترمير ، وظهرت ترجمتها الفرنسية لدى سلان بين عامى ١٨٦٣ ، ١٨٦٨ فى ثلاثة مجـــلدات وترجمت إلى التركية بعناية بيرى زاده المتوفى عام ١١٦٢ هـ - ١٧٤٩ م . وترجمت فصول منها إلى الإيطالية والانجليزية واللاتينية والروسية . .

وفى آخر تاريخ ابن خلدون تعريف كتبه ابن خلدون بنفسه حتى مستهل عام ٧٩٧ هـ ، وهو بمثابة ذيل لتاريخه ويعد مفتاح شخصية ابن خلدون ، ومرجعا لكل من كتب عنه ، ومن التعريف نسخة كاملة مستقلة فى دار الكتب المصرية (١٠٩ م تاريخ) . تصل حوادثها إلى نهاية عام ٧٠٧ هـ أى قبل وفاته بشهور قلائل . .

(٢)

فى عيـــد الفطر من عام ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م قدم ولى الدين عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون ، مدينة تلمسان والمغرب . وكانت شهرته العلمية والأدبية والسياسية إذ ذاك تبسقه إلى كل مكان .

وأراد ابن خلدون أن يخلد فى هذه المدينة إلى الدرس والتأليف ، وأن يستريح من أعباء السياسة وتعبها ، ولكن أمير تلمسان أراد من ابن خلدون أن يسعى لتوطيد عرشه بين القبائل المغربية ، فتظاهر بالقبول وخرج من تلمسان ، وذهب إلى أحياء بنى عريف فنزل لديهم ، وقدمت أسرته من تلمسان حيث أقام ابن خلدون فى هذه المنطقة النائية مدى أربعة أعوام . بدأ فيها بتأليف كتابه التاريخى المشهور « بتاريخ ابن خلدون » . ويسمى « العبر وديوان المبتدأ » .. وكان ابن خلدون يومئذ فى الخامسة والأربعين من عمره ، وكان مكتمل الثقافة ، كثير التجارب ، ناضج التفكير ، عميق العقلية ، دارسا لأحوال المغرب وسياسته وتاريخه ودوله وملوكه ، ولحياه القبائل البربرية وطباعها وتقاليدها ،

وفى هذه العزلة النائية كتب ابن خلدون مقدمة تاريخه حيث جاد فكره بأفكار وبحوث وآراء جديدة . وبنظريات خالدة لاتزال الجامعات وشتى البيئات العلمية تعكف على دراستها وبحثها .. وقد انتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته فى منتصف عام ٧٧٩ ﻫ ١٣٧٧ م ، حيث أمضى خمسة شهور فى تدوينها ، ثم نقحها وهذبها بعد ذلك عدة مرات ، ويقول عنها ابن خلدون فى آخر الجزء السابع من تاريخه : « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها » .

ثم شرع ابن خلدون بعد اتمام المقدمة فى كتابة تاريخه ، فكتب تاريخ العرب والبربر وزناته ، وهو المدون فى الأقسام الأولى والأخيرة من «العبر» ، وكان منهج ابن خلدون كتابة تاريخ المغرب والدول البربرية . ويشرح ذلك فى المقدمة فيقول : « وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى إما صريحا مندرجا فى أخباره أو تلويحا ، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ، دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه ، وإن الأخبار المتناقلة لا توفى كنه

ما أريده منه » . ولكنه بعد أن أمضى شوطا فى كتابة تاريخه رأى أن يكون كتابه شاملا لتاريخ البشر منذ بدء الخليقة ، لذلك آثر أن يعود إلى تونس ليستكمل المراجع اللازمة له بعد أن كان قد أكمل المقدمة وكتابة الأقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر .

وكتب ابن خلدون إلى سلطان تونس يستأذنه فى العفو عنه والاذن بعودته إلى وطنه لإكمال كتابه التاريخى فرد السلطان عليه بالصفح والقبول ، ودعاه إلى القدوم إلى تونس ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف فى شهر رجب عام ٧٨٠ هـ ، ولقى العالم الجليل أبا العباس سلطان تونس بظاهر سوسة ، حيث بالغ فى اكرامه وأصدر أوامره إلى رجال الدولة بتوفير ما يلزم له ولأسرته من المسكن والمعاش ...

ودخل ابن خلدون وطنه بعد أن غاب عنه شابا دون العشرين ، عام ٧٥٣ هـ ، وأقام فى دعة وهدوء عاكفا على الدرس والبحث ،

وعكف المؤرخ التونسى الكبير على اتمام مؤلفه وتهذيبه وتنقيحه ، وأتم منه نسخة أهداها إلى السلطان أبى العباس فى أوائل عام ٧٨٤ هـ — ١٣٨٢ م وتشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة إلى عصر المؤرخ واسترجاع السلطان أبى العباس لتوزر عام ٧٨٣ هـ .

وأنشد ابن خلدون السلطان وهو يقدم إليه موسوعته التاريخية الكبرى قصيدة لامية طويلة نوه فيها بالسلطان وأعماله وانتصاراته .

وبعد قليل استأذن ابن خلدون فى السفر للحج ، فأذن له ، وودعه أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه وهو يركب البحر إلى المشرق فى منتصف شعبان عام ٧٨٤ هـ — أكتوبر ١٣٨٢ م .. وفى عيد الفطر من العام نفسه وصل ابن خلدون الإسكندرية ، فنزل فيها ، وتوجه منها إلى القاهرة فوصلها فى أول ذى القعدة عام ٧٨٤ هـ - نوفمبر ١٣٨٢ هـ ، بعد دخول ابن بطوطة الرحالة

إليها بنحو ستين عاما ، إذ كانت وفادة ابن بطوطة على القاهرة عام ٨٢٦ هـ - ١٣٢٦ م فى عهد الناصر بن قلاوون .

وأقام ابن خلدون فى القاهرة ، وانثال عليه طلبة العلم بها يلتمسون منه الإفادة ، واستوطن القاهرة وتصدر للتدريس بها بالجامع الأزهر ، وكان سلطان مصر إذ ذاك هو الظاهر برقوق الذى ولى حكم مصر فى أواخر رمضان عام ٧٨٤ هـ ، وتولى بعد ذلك ابن خلدون التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ، وهى من مدارس المالكية المشهورة فى مصر ، وبعد قليل عين قاضيا لقضاة المالكية فى مصر فى أواخر جمادى الأولى عام ٧٨٦ هـ .

وكان سلطان تونس قد حجز أسرة المؤرخ فى تونس حتى يعود ابن خلدون إلى موطنه ، فتوسل إلى السلطان الظاهر أن يشفع له لديه فى تخلية سبيل أسرته ففعل . وأطلق سراح أسرته ، وركبت سفينة إلى مصر ، ولكن السفينة غرقت فى البحر الأبيض وغرق أهله فيها ، ووصله فى القاهرة نبأ هذه الفاجعة الأليمة ، فحزن حزنا شديدا .

وفى عام ٧٨٩ هـ سافر إلى الحج ، ثم عاد إلى القاهرة فى جمادى الأولى سنة ٧٩٠ هـ .

وفى أثناء إقامة ابن خلدون بالقاهرة أخذ يهذب وينقح فى المقدمة والتاريخ وزاد فى حوادث التاريخ حتى بلغ بها نهاية القرن الثامن الهجرى بعد أن كان قد بلغ بها فى تونس حتى عام ٧٨٣ هـ .. ومن الفصول الجديدة التى كتبها فى مصر : خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار ، وسوى ذلك من بحوث .

(٣)

وقد شغلت المقدمة وحدها أذهان العلماء والمفكرين طوال عصور التاريخ ونالت من الاهتمام والعناية أضعاف أضعاف ما ناله تاريخه الكبير .

ولا عجب ، فقد كان نظر ابن خلدون إلى التاريخ سابقا لزمنه ، وقد وضع

بمقدمته أصول علم التاريخ . فكانت هى الأثر الوحيد فى نوعه فى التراث العربى الإسلامى .

وقد بحث ابن خلدون فى المقدمة فى أثر الجو والبيئة والغذاء فى تكوين طبائع الناس وعقولهم وأخلاقهم ، وفى الاجتماع البشرى وشكله ونموه وفنائه ، وفى العلوم الإسلامية ونشأتها وارتقائها .

وقد طبعت المقدمة لأول مرة فى مصر عام ١٢٧٤ ﻫ فى مطبعة بولاق بتصحيح الشيخ نصر الهورينى ، وفى عام ١٢٨٤ ﻫ تم طبع التاريخ بأكمله فى سبعة مجلدات كبار . ورأى التاريخ النور لأول مرة فى تاريخ الشرق العربى الثقافى .

وكان المستشرقون قد سبقوا فنشروا مقتطفات من مقدمة ابن خلدون وتاريخه ، وكان من بينهم المستشرق الفرنسى « سلفسترى دوساسى » الذى أخرج عام ١٨٠٦ م فصولا من المقدمة والتاريخ ، وفى عام ١٨٥٨ نشر « كاترمير » المقدمة كاملة بنصها العربى ، ونشر « دوسلان » بعد ذلك ترجمة للمقدمة باللغة الفرنسية ، وعندئذ ظهر ابن خلدون كما يقول عنان فى التفكير الغربى فى روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذى غمره النسيان مدى عصور .

وقد طبعت المقدمة والتاريخ فى مصر عدة طبعات ، وآخر طبعات المقدمة طبعة حديثة يتولى تحقيقها الدكتور على عبد الواحد وافى ، وقد ظهر منها الجزء الأول .

ويذهب سلامة موسى إلى أن ابن خلدون قد سرق كل ما كتبه إخوان الصفاء وعزاه إلى نفسه .

ويرد عليه أبو القاسم محمد كرو مفندا هذا الرأى .

ان ابن خلدون بتاريخه ، وبمقدمته خاصة ، قد احتل الذروة فى التفكير الإسلامى ، وقد وضعته مقدمته بين أعلام العلماء الخالدين فى تاريخ الإنسانية الفكرى ؛ وقد نال من عناية العلماء والمفكرين مالم ينله مؤرخ إسلامى ؛ ولا تزال نظرياته وآراؤه موضع اهتمام الباحثين والمؤرخين والفلاسفة إلى اليوم .

(٤)

وابن خلدون هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد ، ينتهى نسبه إلى جده الأعلى ابن خلدون ، وأسرته من بنى وائل ، وقيل انها هاجرت إلى الأندلس فى القرن الثالث .

ولد بتونس فى أول رمضان عام ٧٣٢ هـ ٢٧ مايو ١٣٣٢ م ، من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والرياسة ، وكان نزوحها من الأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى من أشبيلية ونشأ عبد الرحمن فى تونس فى ظلال دولة الحفصيين ودولة بنى مرين بالمغرب وكان منهم السلطان أبو الحسن المرينى « ٧٣١ - ٧٥٢ هـ » ، وابنه أبو عنان (٧٥٢ - ٧٥٨ هـ) ، ثم أبو سالم ابن أبى الحسن المرينى (٧٥٨ - ٧٦٢ هـ) ، وأكمل دراسته الأولى على والده ، وعلى بعض الأساتذة المشهورين ، ولكن الوباء الكبير الذى اجتاح البلاد قضى على أسرته فى المغرب ، فحزن لذلك حزنا شديدا ، واشتغل بالكتابة ، فدعاه السلطان أبو إسحاق ملك تونس عام ٧٥١ هـ ليتولى له كتابة « العلامة » وهى التوقيع على المراسيم السلطانية والمخاطبات الرسمية باسم السلطان ، وقربه إليه ، ولكن ابن خلدون لم يلبث أن ترك أبا إسحاق واتصل بالسلطان أبى عنان المرينى ملك المغرب الأقصى عام ٧٥٥ هـ ، فتولى له الكتابة والتوقيع حينا ، ثم اتهم بالتآمر على السلطان فسجن ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبى عثمان ، ورد إلى وظائفه ، ثم تولى كتابة السر والإنشاء وخطة المظالم للسلطان أبى سالم ابن أبى الحسن المرينى ، فأظهر كفاية وإخلاصا ، ولاذ بالسلطان أبى سالم فى هذه الفترة ملك الأندلس محمد بن الأحمر ووزيره لسان الدين ابن الخطيب ، بعد أن اغتصب العرش منه ، فاتصلت رابطة الصداقة والأدب بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب من ذلك الحين ، ثم توفى السلطان أبو سالم سنة ٧٦٢ هـ ولم يلبث ملك الأندلس أن استرد عرشه ، فرحل ابن خلدون إلى الأندلس عام ٧٦٤ هـ ، وأقام فى العاصمة غرناطة مشمولا بعطف ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب ، وأرسله فى سفارة رسمية إلى ملك قشتالة باشبيلية ، فقام بها خير قيام ، بيد أن فتور العلاقة بينه وبين

ابن الخطيب كان باعثا له على الخروج من الأندلس عام ٧٦٦ هـ حيث تولى الحجابة لأمير « بجاية » ولكن عرش هذا الأمير لم يلبث أن اغتصبه مغتصب ، فظل ابن خلدون يتنقل من خدمة أمير إلى خدمة أمير ، حتى حيكت حوله المؤامرات ففر إلى الأندلس مهاجرا إليها مرة أخرى عام ٧٧٦ هـ ، ولكن فراره إلى غرناطة وهرب ابن الخطيب منها إلى المغرب الأقصى كان مثارا لمشكلات سياسية بين ملك بنى الأحمر فى غرناطة وبنى مرين فى فاس بالمغرب الأقصى ، وقد انتهت الأحداث بقتل ابن الخطيب فى فاس وبطرد ابن خلدون من الأندلس .

عاد ابن خلدون إلى المغرب الاقصى ، ملتجئا إلى أحياء بنى عريف بتلمسان ، حيث أقام يؤلف كتابه التاريخى الكبير ، وهو كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، كما أسلفنا ، ثم عاد إلى وطنه تونس عام ٧٨٠ هـ ، فأتم كتابه ورفعه إلى سلطان تونس أبى العباس الحفصى عام ٧٨٣ هـ ، وقربه السلطان إليه ، ولكن الوشايات عادت تحوك حوله الدسائس من جديد ، فعزم على الرحلة إلى المشرق ، مستأذنا من السلطان فى السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فأذن له وركب ابن خلدون سفينة أقلته إلى الاسكندرية فنزل بها وسافر إلى القاهرة ، فوصلها عام ٧٨٤ هـ ، وأخذ ابن خلدون يلقى دروسه فى مذهب مالك فى الأزهر الشريف ، واتصل ببرقوق رأس دولة « المماليك البرجية » الذى حكم مصر سبعة عشر عاما (٧٨٤ — ٨٠١ هـ) وولاه التدريس فى المدرسة القمحية المالكية بجوار جامع عمرو ، وتولى قضاء المالكية أيضا ، فأرسل إلى بلاد المغرب يستقدم أسرته ، ولكنها غرقت بها السفينة التى كانت فيها ، ولم ينج أحد ، فعظم حزن ابن خلدون لذلك كما أسلفنا .

كان وجود ابن خلدون فى مصر وولايته لمنصب قضاء المالكية فيها ، مثار دسائس وأحقاد بينه وبين علماء عصره الذين كانوا يتطلعون لهـــذا

المنصب ، واضطرب الأفق حوله ، وعزل عن القضاء ، فاستأذن من برقوق في الحج فأذن له،وعاد بعد الحج فعينه برقوق أستاذا في المدرسة الصرغتمشية ـ شمال جامع ابن طولون ، ثم عينه شيخا لخانقاه بيبرس ، وانقطع إلى التدريس والتعليم ، يوطد الصلات السياسية والعلمية بين مصر والمغرب ، حتى أعاده برقوق إلى منصب القضاء ، وظل فيه إلى أن توفي برقوق عام ٨٠١ هـ وتولى بعده ابنه فرج فعزله عن القضاء .

في هذه الاثناء كان جيش تيمورلنك يغزو الشرق ، ويعيث في بلاده فسادا ، ودخل الشام ، فخرج فرج للقائه ، وخرج معه ابن خلدون ، ولكن فرج رجع مسرعا ليقضى على ثورة سياسية قامت في مصر ، وأقام الجيش حيث هو ، وأقام مع الجيش ابن خلدون ، ثم انتصر جيش تيمورلنك ، فسار ابن خلدون إلى معسكر الظافرين يفاوض في شروط الصلح ، وفي تسليم دمشق بعد أن أنهكها الحصار . . ولما عاد ابن خلدون إلى مصر أعيد إلى القضاء لثالث مرة ، ثم عزل عام ٨٠٤ هـ ، واستمر بين ولاية القضاء المالكي وعزل منه ، حتى تولاه لسادس مرة عام ٨٠٨ هـ ، فلبث فيه ستة أسابيع توفي بعدها في ٢٦ رمضان عام ٨٠٨ هـ ، ١٦ مارس عام ١٤٠٦ ودفن في مقبرة الصوفية في العباسية خارج باب النصر ، بالقاهرة .

ولابن خلدون كتابه التاريخي العظيم ، ومقدمته الرائعة الخالدة ، وقد انقطع عام ٧٧٧ هـ لتأليف تاريخه في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، وأقام سنين يكتب في مقدمته التي أتمها عام ٧٧٩ هـ ، وفي بعض فصول الكتاب التاريخية ، ثم كتب فصولا أخرى منه في تونس وفي القاهرة ، وانتهى أخيرا من الكتاب في القاهرة عام ٧٩٧ هـ ، وسماه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وقسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب ، وأشار في المقدمة إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ونقد أخطاء المؤرخين وأغاليطهم ، أما الكتاب الأول فخاص بالعمران وما يعرض فيه من

العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من علل وأسباب ، والكتاب الثانى فى أخبار العرب وأحيائهم ودولهم من بدء التاريخ إلى عصره ، مشيرا إلى الدول التى عاصرتهم ، وسرد فى الثالث أخبار البربر ودولهم وملوكهم وقبائلهم ، وهذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب ، وقد أهدى ابن خلدون نسخة كاملة من الكتاب لسلطان المغرب الاقصى أبى فارس المرينى ، الذى تولى حكم المغرب ثلاثة أعوام (٧٩٦ — ٧٩٧ ﻫ) ، والكتاب سبعة مجلدات ، والمجلد الأول منها فى فلسفة التاريخ والاجتماع وهو المشهور بالمقدمة ، والستة الباقية فى تاريخ العرب والعجم والبربر .

وقد خلدت هـــذه المقدمة النفيسة ابن خلدون ، ورفعته إلى مصاف الفلاسفة الملهمين ، وبوأته فى تاريخ التراث الفكرى الإسلامى مكانا رفيعا ، ويعجب علماء الغرب وفلاسفته بالمقدمة ، ويرون أن ابن خلدون بها يعد المبتكر لعلم الاجتماع ، وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الاجتماعى والسياسى وفلسفة التاريخ والقانون العام ، وقد عرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون ، فترجموا المقدمة إلى لغاتهم ، وطبعت فى القاهرة لأول مرة منذ نحو حوالى تسعين عاما ، وكان لابن خلدون وأسلوبه فى المقدمة أثر واضح فى أساليب الكتاب والأدباء فى مصر منذ ذلك الحين , وفى عام ١٩٣٢ أحيا جماعة من أدباء مصر ذكرى ابن خلدون ، فكتبوا المقالات والبحوث والدراسات عنه ونشر الأستاذ محمد عبد الله عنان كتابه عنه .

ولا شك أن المقدمة أثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه وشخصيته التى هى مثل للمفكر والمؤرخ السياسى والرجل السياسى أيضا ، إذ أن تجاربه وصلاته السياسية بعروش دول المغرب . وتوليه أعظم المناصب فيها ، وتقلبه شابا ورجلا وكهلا فى الاحداث السياسية ، كل هذا خلق منه سياسيا داهية ،

وهو أيضا مما عاون الرجل على إخراج مقدمته النفيسة ، والمسائل التى عالجها ابن خلدون فى المقدمة ذات دقة متناهية ، ولم يسبق لأحد من علماء المسلمين أن تناولها بالتأليف على هذا النمط والاسلوب ، وهو ينبه فى المقدمة على أن الكلام فيها « مستحدث جديد أدى إليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « علم مستقل » ابتكره ابن خلدون دون أن يطلع على تأليف فى معناه ، وان كان بعض الابجديات التى ذكرها فى المقدمة قد تجرى لأهل العلوم بالعرض فى براهين علومهم ، مثل ما يذكره الحكماء فى اثبات النبوة من أن البشر متفاوتون فى وجودهم فيحتاجون فيه إلى الوازع والحاكم،ومثل ما يذكر فى أصول الفقه من أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات ، ومثل ما ورد فى حكم الحكماء وكتب الفلاسفة كالكتاب المنسوب لأرسطو فى السياسة ورسائل ابن المقفع وسراج الملوك للطرطوشى . . فقد حوم فيه وبوبه على أبواب تشابه أبواب المقدمة ولكنه لم يستوف المسائل ، بل يبوب الباب للمسألة فيستكثر من الاحاديث والحكم بدون تحقيق ، فهو نقل وترغيب أشبه بالمواعظ ، وكان حوم على الغرض فلم يدركه . . وابن خلدون يؤكد أن المسائل التى ورد ذكرها فى المقدمة قد ألهمه الله إياها الهاما ، فهو الذى نهج للباحثين فيها السبيل ، ووضح لهم الطريق .

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته التاريخ فيصفه بأنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض له من أحوال وما ينشأ عنه من ملك وما ينتحله البشر من صناعات ومعارف ، ويحدده فى موضع آخر بأنه « ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل » فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال فهو أساس ثقافة المؤرخ ، وإن كان المسعودى وسواه يفرده بالتأليف .

ويشرح ابن خلدون فى مقدمته نظريات عديدة ، منها أن الإنسان مدنى

بالطبع ، أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وأن الترف يقضى — عندما يستشرى فى جسم الأمة — عليها ، ويسير بالدولة إلى الهرم والشيخوخة ، وأن العسف مضر بالملك مفسد له ، وإن الظلم مؤذن بخراب العمران ، وأن الهرم إذا حل بالدولة لا يرتفع إلا إذا جدت عوامل أخرى تدعو إلى تجدد الدولة ، ويذكر كذلك أن الحضارة غاية العمران ومؤذنة بفساده ، وأن العواصم تخرب بخراب الدولة ، وسوى ذلك من عديد النظريات .

وابن خلدون يشرح ويفسر لنا حقيقة النبوة وكيفية نزول الوحى على الرسل والأنبياء ، ويفرق بين ذلك وبين الرؤى والأحلام ، وكلامه فى ذلك يعد أساس النظرية الحديثة لفرويد . . ولابن خلدون رأى فى العرب عجيب ، فهو يذهب إلى أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب ، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة دينية ، وهم عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وهم أبعد الناس عن الصنائع ، ومبانيهم يسرع إليها الفساد ، وحملة العلم فى الإسلام عجم ، وهذا الرأى الغريب حير الباحثين فى تراث ابن خلدون الفكرى ، فعللوه بأسباب مختلفة متناقضة ، أما نحن فنعلله بأحد أمرين :

الأول إن ابن خلدون يريد بالعرب البدو فى أى مكان كما عبر هو عنهم بهذا أحيانا ، لا عرب الجزيرة العربية خاصة ، وهذا الرى محتاج إلى إثبات السر فى ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر للفظة عرب . . والثانى أن ابن خلدون يقصد العرب ويريدهم ويتكلم عنهم ، ومن الملحوظ من عبر التاريخ أن العرب فى جاهليتهم وحين تحللهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون ، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين من نفوسهم ، وكأنه يريد التعميم فى أحوالهم ، فإن العرب حين تمسكهم بإسلامهم وشريعتهم ، كانوا كما نعرف عدلا وسياسة وإصلاحا ونبل حكم ، وفى هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية

مغلوبون لأهل الأمصار . ويذكر ابن خلدون أحوال الموالى والمصطنعين وما يعرض للدول من الحجر على السلطان والاستبداد به ومشاركته فى نفوذه وألقابه . وآراء ابن خلدون فى الفصل الخامس فى المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصنائع مباحث قيمة فى الاقتصاد السياسى والاجتماعى ، وقد اقتبس منها كارل ماركس فى كتابه « رأس المال » ومن آراء ابن خلدون فى المقدمة :

١ — أن النقد التاريخى هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه . فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه ، وما لا يجوز فيه رفضناه .

٢ — أن أصول التوحيد هى عقائد متلقاة عن الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه . وهنا يذكر ابن خلدون أن العقل معزول عن الشرع لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية ، فهى فوقها محيطة بها . لاستمدادها من الأنوار الإلهية ، ويأخذ فى ذم الفلسفة وتخلفها ، ولا شك أن ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك لبغض المجتمع الإسلامى فى عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها والعنف فى البطش بكل من عرف عنه أنه محب لها ، ولا نخال ابن خلدون سوى فيلسوف ملهم . فأفكاره فى المقدمة أفكار فلسفة عميقة ، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارف قدرها ، ويبدو أنه كان يقصد التمويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم بالإلحاد والكفر ، ويعرض نفسه لمحن لا داعى لها ، بل إن المقدمة نفسها لون من ألوان الفلسفة فى عصرنا الراهن ، ولا شك أن ابن خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والإنسانية جمعاء .

(٥)

ويبدأ ابن خلدون مقدمته فيقول : « يقول العبد الفقير إلى الله تعالى ، الغنى بلطفه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ، وفقه الله » .

ثم يقول : « أما بعد ، فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداوله الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، وتتساوى فى فهمه العلماء والجهال » .

وبهذا الأسلوب المسجوع الموقع يستمر ابن خلدون فى التنويه بعلم التاريخ ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره فى أوائل عهد النهضة الأدبية فى مصر والعالم العربى .

ثم يذكر ابن خلدون أنه قسم كتابه إلى :

١ — المقدمة فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالمام بمغالط المؤرخين .

٢ — الكتاب الأول فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب .

٣ — الكتاب الثانى فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه من الالماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة .

٤ — الكتاب الثالث فى أخبار البربر ومواليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان بدول المغرب خاصة من الملك والدول .

إن « المقدمة » من أهم ما وصل إلينا من التراث العربى الثقافى الأصيل ، وهى تحفة فريدة مبتكرة لا مثيل لها فى الآثار الإسلامية القديمة . . وابن خلدون بمقدمته يحتل مكانة بارزة فى التاريخ الإسلامى الفكرى والعقلى .

ونحن مدينون لابن خلدون ولنظرياته بالكثير ، وقد رفع ابن خلدون بكتاباته مكانة العقل العربى إلى الذروة ، ولا يزال تراثه موضع الفخر والاعجاب من كل الباحثين والدارسين .

بين جمال الدين ومحمد عبده

(١)

كان الأفغانى ومحمد عبده أعظم مصلحين ظهرا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، حملا رسالة الإصلاح الدينى والفكرى وكونا مدرسة أدبية وسياسية كان لها أعظم الأثر فى تاريخ الشرق الإسلامى .

وعن هذه المدرسة انبعثت روح التحرر والرغبة فى التقدم ونضال الاستعمار فى جميع البلاد الشرقية والعربية .

وترجع صلة محمد عبده بجمال الدين الأفغانى إلى أول المحرم عام ١٢٧٠ هـ ، حيث كان الأفغانى فى زيارة قصيرة للقاهرة فى طريقه إلى الآستانة منفيا بيد الإنجليز من الهند ، وكان محمد عبده إذ ذاك طالبا بالأزهر .

وتردد محمد عبده على بيت جمال الدين ، وتتلمذ عليه وعلى مائدة علمه وفضله ؛ وبعد أيام قصيرة سافر جمال الدين إلى الآستانة ، وودعه محمد عبده وداعا حارا ، وفى الآستانة نال جمال الدين تقديرا كبيراً ، وعين عضوا فى مجلس المعارف هناك ، ولكنه شعر بالدسائس والوشايات تحاك من حوله فعاد إلى القاهرة مرة أخرى فى أول المحرم ١٢٨٨ م ، فعاد محمد عبده إلى التلمذة عليه والإفادة من ثقافته .

وعرف محمد عبده من أستاذه جمال الدين أن الاستعمار الغربى وبال على الإسلام والمسلمين ، وأنه يجب محاربة الديكتاتورية الملكية ، والفساد السياسى ؛ وعن طريقه علم أن الأدب يجب أن يكون فى خدمة الشعب وتحريره ، وأنه يجب أن يتحرر من قيود الصناعة اللفظية ، وأن المعنى لا اللفظ هو سر كل بلاغة ، وتعود الكتابة الدينية والوطنية فى الصحف والمجلات ، وبدأ يهتم بمطالعة مصادر الثقافة الإسلامية والأدبية ، ويطالع الكتب المترجمة ، ويسعى مع إخوانه من تلامذة جمال الدين فى إصلاح الأزهر الشريف وفى الإلحاح فى طلب الحكم النيابى والديمقراطية السياسية .

وظفر محمد عبده بشهادة العالمية عام ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م وأصبح مدرسا بالأزهر ودار العلوم ومدرسة الألسن ، وبدأ يكون جيلا جديداً من تلامذته ، ينفخ فيهم روح أستاذه جمال الدين .

(٢)

وفى الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩ م عزل إسماعيل وتولى مكانه ابنه توفيق ، وقد بدأ حكمه بنفى جمال الدين من مصر ، وإقالة محمد عبده من وظائفه العلمية ، وتحديد إقامته فى قريته « محلة نصر » ، وذلك فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٩ م — أواسط رمضان عام ١٢٩٦ هـ ، خوفا من النهضة الوطنية التى يتزعمانها ، ويدعوان إليها ، وقبل أن يغادر الأفغانى أرض مصر قال : « إنى تركت فى أرض مصر الشيخ محمد عبده يتم ما بدأت به » .

وبعد شهور عفا توفيق عن محمد عبده ، وأسند إليه رياض باشا التحرير فى الوقائع ، فاختار معه سعد زغلول وجماعة من زملائه من تلامذة جمال الدين ؛ وكون محمد عبده عن طريق الوقائع مدرسة صحفية نزيهة غايتها خدمة الشعب وتحريره فكريا وقوميا من قيود الاستعباد والاستبداد والرجعية والجهل والجمود والتأخر .

وقامت الثورة العرابية ، وكان محمد عبده من أبرز زعمائها ، وكان جمال الدين آنذاك فى الهند ، فاعتقلته بريطانيا حتى لا يتصل بزعماء الثورة ، وانتهت الحركة العرابية بالفشل والاحتلال البريطانى لمصر ، وقبض على محمد عبده وسجن وحوكم ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ، فاختار سوريا منفى له . وأفرجت بريطانيا عن جمال الدين وسافر من الهند إلى لندن فباريس ، وهنالك استدعى جمال الدين محمد عبده من بيروت ليقيم معه فى عاصمة فرنسا .

(٣)

وفى باريس أخذ الإمامان يجاهدان من أجل مستقبل الشرق الإسلامى

وتحرره ، ويعملان ليعود للإسلام مجده وألفا جمعية «العروة الوثقى» عام ١٨٨٤ ثم أصدرا صحيفة باسم « العروة الوثقى » للجهاد فى سبيل الشرق والإسلام . وخلق الوعى السياسى المستنير فى الشعوب الإسلامية » ومناهضة الحكم الديكتاتورى » والعمل على إحياء الأخوة الإسلامية ، وعلى قيام حكم ديمقراطى شورى بين الناس .

وصدر العدد الأول من العروة الوثقى فى ٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ — ١٣ مارس ١٨٨٤ م ، وكله حرب على الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين ، ودعوة إلى حكومة إسلامية موحدة أو حكومات إسلامية متآخية متحدة المناهج والأهداف . والأفكار يرتبط بعضها ببعض بروابط الود والاخاء وحب السلام .

وفى يوليو عام ١٨٨٤ أوفد جمال الدين الأستاذ الامام محمد عبده إلى لندن لمفاوضة السادة الانجليز فى القضية المصرية ودعوة إنجلترا إلى الجلاء عن مصر وترك السودان للسودان ، وأدى محمد عبده مهمته خير أداء ، وأعلن فى عزم وقوة أن مصر ستحارب الاستعمار الانجليزى بكل ما أوتيت من قـــوة .

وعاد الامام إلى باريس ليشهد توقف مجـــلة العروة الوثقى التى حاربها الاستعمار والانجليز حربا لا هوادة فيها ، وذلك بعد العدد الثامن عشر الصادر فى ٢٦ من ذى الحجة عام ١٣٠١ هـ — ١٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ م .

وعاد جمال الدين فأوفد الإمام إلى السودان لتغذية الثورة المهدية والإفادة منها فى تحرير مصر من الاحتلال ، فسافر محمد عبده سراً إلى تونس ومنها إلى مصر ، وأراد السفر إلى السودان ولكنه فوجىء بوفاة المهدى فى الحادى والعشرين من يونيو عام ١٨٨٥ ، وتسليم التعايشى ، فسافر سرا إلى بيروت وأقام فيها ، وبقى أستاذه جمال الدين فى باريس ، وأخذ كل منهما يجاهد فى سبيل منهجه الإصلاحى المرسوم .

وفى بيروت ألف محمد عبده جمعية التأليف والتقريب هو وصديقه تلميذ جمال الدين « ميرزا محمد باقر » للدعوة إلى الإسلام فى جميع أنحاء العالم ؛ وتعريف الغرب بحقائق الإسلام والتعاون على إزالة اضطهاد أوربا للشرق أو المسلمين .

وكان قيام هذه الجمعية تطبيقا رائعا لأفكار جمال الدين ونزعاته وتعاليمه .

(٤)

وفى أواخر عام ١٨٨٨ م عاد محمد عبده إلى وطنه بعد أن ظل فى المنفى ست سنوات « وأخذ يكون مدرسة فكرية متحررة لتثقيف الشعب وتربيته وتحريره من الجهل والخوف والجمود ، وإعداده لحياة ديمقراطية صالحة ، وكان من تلاميذه سعد زغلول والمنفلوطى ولطفى السيد والمليباوى ومصطفى عبد الرازق والأحمدى الظواهرى ومحمد مصطفى المراغى والزنكلونى ورشيد رضا وسواهم .

وعاد جمال الدين إلى الآستانة يقيم فيها فى ظلال السلطان عبد الحميد وأخذت دعوة جمال ومحمد عبده إلى التحرر الفكرى والإصلاح الدينى تنتشر فى صفوف الشباب فى مصر والعالمين العربى والإسلامى انتشارا كبيراً .

وسعى محمد عبده فى إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والقضاء والمساجد والافتاء ذائع معروف ، وساح محمد عبده فى الأقطار الإسلامية فقام برحلات إلى تونس والجزائر والشام والآستانة وأوربا والسودان ، وهو أينما نزل ، وحيثما رحل ، ينشر رسالته ، ويدعو إلى الإصلاح والتجديد .

ومات جمال الدين فى الآستانة فى صباح الثلاثاء الخامس من شوال عام ١٣١٤ ﻫ — التاسع من مارس عام ١٨٩٧ م ودفن فيها ، وبعد سنوات ثمان مات محمد عبده فى الثامن من جمادى الأولى عام ١٣٢٣ ﻫ - ٢١ يوليو عام ١٩٠٥ ، وذهب الإمامان إلى ربهما راضيين مرضيين بعد أن أديا رسالتيهما

على خير الوجوه ، وجاهدا فى سبيل الإسلام والمسلمين جهاد الأبطال وأسهما فى خلق الوعى السياسى وتأجيج الشعور الوطنى ، وإحياء العزة القومية فى فى نفوس المسلمين عامة .

وكان نضال الإمامين وكفاحهما مضرب الأمثال ، لأنه كان نضالا صادقا خالصا لوجه الله والإسلام .

مات الإمامان ولكن تلاميذهما كانوا هم محور النهضة السياسية والوطنية فى تاريخ العالمين العربى والإسلامى بعد وفاتهما ، وظلت مبادىء جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده حية فى النفوس مشتعلة فى القلوب ، مسجلة فى أنصع صفحات التاريخ الحديث .

إن هذين الإمامين الجليلين والحكيمين الرائدين ، والعبقريين المصلحين ، لهما سبب كل تقدم أحرزناه خلال الخمسين سنة الماضية ، ومن أفكارهما وآرائهما ودعوتهما انبعثت شعلة الثورة والتحرر والإصلاح فى كل مكان ..

فى سبيل تحرير الوطن العربى

مصر تحرر فلسطين

إن مشروع تصفية إسرائيل ليس حلما من أحلام العرب ، ولا أمنية من أماني القومية العربية المتحررة ، إنه حقيقة ، بل أكثر من حقيقة ، وهو إيمان كل عربي يؤمن بنفسه وبتاريخ بلاده ..

وإذا لم تتم تصفية إسرائيل هذا العام ، فسوف يحمل أمانتها الجيل العربي الجديد حتى يؤديها ، ولو بعد مائة عام .

إن مصر والشعوب العربية الحرة ، وفي مقدمتها سوريا ، وأصدقاءهم من الشعوب المحبة للسلام ، تؤمن إيمانا عميقا بأن إسرائيل هي سبب اضطراب الأمن ، وزعزعة أركان السلام في منطقة الشرق الأوسط ، بل إنها ستكون سبب زعزعة السلام في العالم ، وسبب قيام حرب عالمية جديدة مدمرة في الغد القريب .

وإسرائيل قاعدة للاستعمار في الشرق الأوسط ، وقد أقيمت لحماية قاعدته الأمامية : تركيا ، ولخلق الاضطراب في ربوع الشرق الأوسط حتى لاتتفرغ دولة للبناء والإصلاح والتعمير ، لتظل في حاجة إلى عون الاستعمار . وكذلك أعدت إسرائيل لتحمي مناطق البترول في إيران والعراق والكويت والسعودية ، ومع ذلك كله فلا بد من تصفية إسرائيل بفضل مصر وجيش مصر ، وبفضل التحرر العربي والقومية العربية ، وبفضل جهود الشعوب المحبة للسلام .

لابد من عودة فلسطين من جديد ، وعودة أبنائها اللاجئين إلى ديارهم وأموالهم وأراضيهم .

وأخالف رأي من يقول إن تصفية إسرائيل يجب أن يتم عن طريق هيئة الأمم المتحدة وكذلك عوة اللاجئين إلى وطنهم ، فلسطين . .

إنني أؤمن بأن القومية العربية هي التي ستعمل على تصفية إسرائيل ، هي

التى ستكون بوعيها وإيمانها وثباتها سبب الجوع الاقتصادى لإسرائيل . وهى التى ستقف مع الشعوب المحبة للسلام فى وجه إسرائيل ، وهى التى ستعزل إسرائيل عن حلفائها ، والجيش العربى الموحد هو الذى سيقف لإسرائيل يؤدبها جزاء نياتها العدوانية الواضحة ، وهو الذى سوف يدخل « تل أبيب » ليحرر أرض فلسطين من الصهيونية ودعاتها ، ويعيدها إلى أبنائها العرب من اللاجئين والنازحين ، وهو الذى سوف يصدر مرسوما بتحريم الصهيونية وبتيسير الهجرة لمن يرغب من الإسرائيليين فى الهجرة ، ويومئذ سوف لا يبقى فى فلسطين إسرائيلى يحب الإقامة فى بلاد لم ينشأ فيها ، وليست وطنه وليست له مصلحة فى البقاء فيها ، ولا يريد أن يعيش فيها من أجل أوامر الاستعمار ومطامعه وأغراضه .

إن جيش العروبة الموحد الذى ستكونه « الجمهورية العربية المتحدة » فى القريب هو الذى سوف يدخل أرض فلسطين ليحررها من الاستعمار ، وليصفى دولة إسرائيل المزعومة ، وليصفى كذلك القواعد العسكرية الاستعمارية المقامة فى وسط البلاد العربية على أرض عربية خالصة .

وليس هذا اليوم ببعيد ، إنه جد قريب ، قريب حقا ، بعد ما اتضحت نيات إسرائيل فى العدوان ، فاعتدت على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وتحالفت مع الاستعمار ضد مصر وضد القومية العربية ، وتحالفت معه كذلك ضد سوريا ، وأيدت مشروع أيزنهاور ، وفتحت موانيها للأساطيل الاستعمارية ، وأعدت جيشا ضخما للاعتداء به على البلاد العربية الوادعة ، ثم تحالفت مع تركيا بغية التوسع على حساب مصر وسوريا وسواهما من الدول العربية الحرة .

إن تاريخ إسرائيل صفحة سوداء من الاعتداء ونية الاعتداء ، ومن حب الخوض فى الاشلاء والدماء ، ومن الاطماع الحقيرة الدنيئة فى الأراضى العربية ، وفى حق الشعوب العربية فى الحرية والاستقلال والسلام .

إن يوم تصفية إسرائيل لجد قريب ، وسيكون الفضل الأكبر فى ذلك راجعا إلى مصر وجيش مصر بإذن الله .

والماضى البعيد يفسر لنا الحاضر والمستقبل جميعا ، ففى ٢١ شعبان عام ٤٩٢ هـ — ١٤ يونيو ١٠٩٩ م استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وكان ذلك فى عهد الخليفة المستظهر بالله العباسى ، والخليفة المستعلى بالله الفاطمى ، وقتل الصليبيون سبعين ألفا من أهل بيت المقدس ، وسالت الدماء أنهارا ، وحكم الصليبيون مدينة فلسطين الأولى ، وظلوا يحكمونها ، إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى ، وبفضله انتصر جيش مصر على الصليبيين فى موقعة حطين يوم السبت ٢٥ ربيع الثانى عام ٥٣٨ هـ ٥ يوليو ١١٨٧ م وفتح جيش مصر بيت المقدس وحررها من أيدى الصليبيين فى يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ - ٢ سبتمبر ١١٨٧ م بعد أن حكمها الصليبيون واحدا وتسعين عاما ، ثم صفى صلاح الدين قواعد الصليبيين فى فلسطين ولم يبق لهم سوى عكا وشريط صغير على سواحل الشام .

واستمر الصليبيون يحكمون هذا الشريط الصغير نحو مائة عام أخرى ، ونهض جيش مصر مرة أخرى لتحرير باقى مدن فلسطين والشام ففتح عكا فى يوم الجمعة ١٥ جمادى الثانية عام ٦٩٠ هـ — ١٥ يونو ١٢٩١ م ، وسقطت باقى المدن الساحلية الأخرى فى يد الجيش المصرى ، وذلك فى عهد سلطان مصر صلاح الدين الأشرف خليل ٦٨٩ — ٦٩٣ هـ : ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م .

وهكذا فى خلال مائتى عام حررت فلسطين وأرض الشام من الاستعمار الصليبى المدمر ، بفضل جيش مصر الباسل المجيد .

ولا أقول إن الحكم الإسرائيلى المخرب لأرض فلسطين سوف يستمر طويلا . لا ، إنه حكم منهار سوف لا يصمد أعواما قلائل إن شاء الله .

وسوف تحرر مصر ، ويحرر جيش مصر أرض فلسطين كما حررها من قبل ، بإذن الله .

صناعة الشعر عند المحدثين

(١)

كان الشعراء المحدثون يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن وتعليل وسوى هذه الألوان ، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيهاافتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بهاوتجميل آثارهم بزخرفها ، وكان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة « فكان كثير البديع فى شعره[1]

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة[2] ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا منهما[3] ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابى والنمرى ومسلم وأبو نواس[4] ، فالعتابى يذهب شعرة فى البديع[5] ، وكان يحتذى حذو بشار فى البديع[6] ، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباههما[7] ، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم[8] وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب[9] ، كان أبو نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ماصب على قوالبه وجرى فى مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : معناهما واحد والعدة اثنان ! بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا اذن وليس بعد بشار مولد أشعر من أبى نواس[10] ، وكان

---

(١) ٣٤٢ : ٣ البيان (٢) ١١٠ : ١ العمدة (٣) ٥٥ : ١ البيان
(٤) ١١٠ : ١ العمدة (٥) ٢٤٢ : ٣ البيان (٦) ٥٥ : ١ البيان
(٧) ٥٤ : ١ البيان (٨) راجع ٢٠ : ٣ الأغانى . ١١٠ : ١ العمدة، ١٣ : ٢ زهر . ٢٥٠ موشح . ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٢٣: ٣ الاغانى) :(٩) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف
(١٠) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى .

أبو نواس يشبه بالنابغة[١] ، وكان أسير المحدثين شعرا[٢] . والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه   بحلمى عنه وهو ليس له حلم[٣]

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبا أدبيا واسعا للشعر ومذهبا جديدا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة[٤] وعلى يدى مسلم وأبى تمام على الخصوص ، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطىء فى صنعته ويجيدها[٥] ، بل هو فيما زعموا أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذا الجنس بالبديع واللطيف[٦] ، وأول من أفسد الشعر بالبديع[٧] ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب[٨] . كان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان[٩] .

(٢)

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى ، « فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى للأشياء من بعد

---

(١) ١١٠ : ١ العمدة . (٢) ١٧٣ : ٣ العمدة . (٣) وهى فى ديوانه . وتنسب لمعن بن أوس خطأ . (٤) ١٧٣ : ١ العمدة . (٥) ١١٠ : ١ العمدة . (٦) ٢٠ : ١ معاهد التنصيص . (٧) ٨ الموازنة . (٨) ٦٨ المثل السائر . ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء . ٢٤٨ رسائل البلغاء . ١٣٢ : ٤ زهر الآداب .
(٩) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه .

ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة[١] ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء[٢] ، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها[٣] ، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه[٤] ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريع والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس(٥) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة وأكثر منها فى أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً(٦)، وكان أبو تمام يستخدم فى صناعة شعره وشى التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد فى تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع فى شعره فيجلله الغموض فى كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى آخذه به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما يريد وجانب الغموض والمعانى العويصة فى شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت فى فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبزغ من مذهب البرناسيين ، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد[٧] وهو المقابلة وكان البحترى يتشبه بأبى تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه فى البديع(٨)

---

(١) ١٠٩ : ١ العمدة . (٢) ١٦٨ : ٧ مهذب الأغانى . (٣) ٩٦ إعجاز القرآن

(٤) ٩٢ رسالة الغفران . (٥) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبى تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى فى ريحانته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صنفها الخالدى على لسان أبى تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبى تمام فى كلامه وشعره . (٦) ١١٠ : ١ العمدة . (٧) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . (٨) ١٨٣ : ٧ مهذب الأغانى .

وكان لا يرى فى التجنيس مايراه أبو تمام[١] ويقل التصنع له فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للمطابقة كثير حسن وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلاسة[٢] والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق كان بدويا أعرابيا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة[٣] ، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلانى، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر، بل كانت كالعسل حلاوة[٤]

أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته[٥]، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع[٦] ، فهو حديث فى ثقافته ولكنه لايستطيع أن ينهض فى فنه بألوان التصنيع وزخارفه وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرجه إلى مجال المصنعين[٧] ، وهو مع ذلك قد يأتى بألوان الزخرف الفنى فى شعره ولكن دون أن يتخذها مذهبا ، وكان يستخدم الطباق والجناس فى شعره

---

(١) أى من إسرافه فيه (٢) ٩٦ إعجاز القرآن (٣) ٩٠ الفن ومذاهبه

(٤) ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدى يفضل ابتداءاته (٥٥ : ١ العمدة) وكان مقصرا فى الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن) ، ويفضله الجرجانى بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمه (٢٠٥ : ١ العمدة)

(٥) ١٠٦ : ١ العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للمعانى (٢٣٢ ج٢ العمدة) ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران) .

(٦) ٩٤ الفن ومذاهبه .

(٧) ٩٥ المرجع .

وهو يشبه البحترى فى ذلك إلا أن البحترى يكثر من الجناس ، وقد استعار من أبى تمام صبغ التدبيج[١] .

(٣)

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به[٢] ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليباهى به وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين وكان متكلفا مجيداً فى تكلفه كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه . ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين[٣] ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا وأقربهم قوافى وأوزانا ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب[٤] ؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويستبد بإعجاب المنصف من النقاد ، «كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج

---

(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم فى القافية ١٣٧ و ١٣٨ : ١ العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى ١٧٢ سر الفصاحة .

(٢) ١١٠ ج ١ العمدة .

(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

(٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة .

نهجا وسطا »[١] . . ولا شك أن ذلك أثر لعصره ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة .

وقد استمر مذهب الصنعة بعد ابن المعتز منهجا فنيا لكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

وفى أوائل القرن العشرين بدأ مذهب أدبى جديد بتأثير آداب أوربا ، خلاصته الدعوة إلى البساطة والسذاجة فى الأسلوب وأن يعبر الكاتب والشاعر عن فطرته دون تنميق أو تكلف .

---

(١) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب .

الطبع والصنعة فى الشعر العربى

(١)

المطبوع من الشعراء كما يقول ابن قتيبة من سمح بالشعر واقتدر على القوافى وأراك فى صدر البيت عجزه وفى فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغزيرة [١] . والمصنوع هو المنقح المثقف من الشعر الذى قومه صاحبه بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ولم يذهب فيه مذهب المطبوعين [٢] مما يظهر للنقاد مهما كان محكما [٣] وتجد البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفقه [٤] ، على أن أئمة الصنعة فى الشعر العربى كانوا يجعلون قصائدهم نمطا واحدا مما يجعلها مستوية الشاعرية كالحطيئة وسواه ولذلك قال الأصمعى : الحطيئة عبد لشعره ، قال الجاحظ : عاب شعره حين وجده كله متخيراً لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه [٥] ، وقال الأصمعى أيضا : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر وكذلك كل من يجود فى جميع شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة [٦] ، قال ابن رشيق : يريد الاصمعى أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به جواسهما وخواطرهما [٧] ، وكان الأصمعى يقول : وإنما الشعر المحمود كشعر الجعدى ورؤبة ولذلك قالوا فى شعره : مطرف بآلاف وخمار بواف [٨] ، وكان

---

(١) ٢٤ الشعر والشعراء . (٢) ١٦ المرجع . (٣) ٢٢ المرجع .

(٤) ٢٣ المرجع ولذلك أخذ النقاد القدماء كالصاحب والثعالبى والبديعى على المتنبى كثرة التفاوت فى شعره .

(٥) ١٥٠ ج ١ البيان والتبيين .

(٦) ٢٥ ج ٢ المرجع وتروى كلمة الأصمعى برواية أخرى هى: زهير والنابغة ، وكان النقاد يعدون النابغة من المصنعين ويروى عن أبى عبيدة قال : سمعت أبا عمرو يقول : زهير والحطيئة عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين (١٠٥ إعجاز القرآن) .

(٧) ١١٢ : ١ العمدة .

(٨) ٢٥ : ٢ البيان .

الأصمعي يفضله من أجل ذلك [١] ، قال الجاحظ : وكان يخالف فى ذلك جميع الرواة والشعراء [٢] وأرى أنه مسبوق بذلك الرأى ، فقد روى أنه قيل للرماح . لو أصلحت شعرك لذكرت به ، فقال : إنما الشعر كنبل فى جفيرك ترمى به الغرض فظالع وواقع وقاصد [٣] ، ورد بشار على من عابه بالتفاوت فى شعره بأن الشاعر المطبوع كالبحر يقذف مرة صدفة ويقذف طورا خرزة [٤] . وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه وهو الآية الناطقة على شاعرية المتنبى عنده [٥] . وإذا كان الشاعر مصنعا بان جيده من سائر شعره كأبى تمام وإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحترى ومن شاكله [٦] .

ويرى بعض المحدثين أن الشعر إذا كان صادرا عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة [٧] فأينما وجدت النفس المتأثرة بما يزحمها من بواعث الشعراء فقد وجدت هنالك شعر الفطرة [٨] ، ويذهب إلى ذلك العقاد حيث يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتكلف فاذا كان الشعر صادقا مؤثرا فهو من شعر الطبع وإلا فهو متكلف [٩] ، ويرى أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد فى معناه أو لفظه وأن يكون صاحب هبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط [١٠] وكذلك ذهب صاحب « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » الذى ذكر رأى ابن قتيبة وحلله بأنه يريد من الطبع فى الشعر معنى الارتجال لا الطبع والشعور والملكة الشعرية الموهوبة ثم بنى على ذلك نقده لابن قتيبة ورأيه [١١] .

---

(١) ١٥٠ ج ١ البيان . (٢) ٢٦ ج ٢ البيان : وكان الأصمعى مع كراهته للصنعة يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة
(٣) ٨٨ ج ٢ الأغانى (٤) ٢٧٥ ج ١ زهر (٥) ٢٧٦ مطالعات العقاد
(٦) ١١١ ج ١ العمدة (٧) ص ٧ الطبع والصنعة فى الشعر
(٨) ١٦ المرجع (٩) ٢٧٧ مطالعات
(١٠) ٢٢٦ مطالعات . (١١) ١٣١ تاريخ النقد الأدبى عند العرب

ورأى المحدثين اصطلاح جديد فى الطبع والصنعة ومعناهما ، وهو لا ينقض الرأى الأول الذى ذهب إليه القدماء ، بل لعل القدماء قد لاحظوه واكتفوا فى تعريفهم للطبع والصنعة بآثارهما الفنية فى الأدب والشعر .

ونحن نرى أن الأولى فى تحديد معنى الطبع والصنعة أن نجمع بين الرأيين فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف ودون تعب فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، فاذا جاء شىء من آثار هذا التكلف الفنى فى شعر المطبوعين من الشعراء فانما يجىء عفوا وعن غير قصد اليه وتعمد له وانما طلبه الذوق واستدعاه المعنى ونطقت به الشاعرية دون قصد ودون عناء ودون أن يطغى شىء على نفس الشاعر وشعوره وخلجات قلبه ونزعات عقله وإحساسه . والصنعة هى : إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفنى بها وقصده إليها وتعمده لها فى شعره وأدبه ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى غلبت عليه هذه النزعة واستبد بها هذا الأسلوب ، وكادت تكون فنا خالصا يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة ، ويستبد بالظهور والغلبة عليها فى الفن ، أو يشاركها فى تراث الشاعر والأديب الفنى فيقلل من ظهور نزعاته ووجداناته فيه ، ولذلك عاب القدماء من النقاد الصنعة والتصنيع ، وكرهوا الصانعين والمصنعين ، ورأوا مذهبهم يخالف مذهب القدماء من الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

(٢)

ولقد كان الشعر العربى أثرا للفطرة والقريحة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية ، وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتابع

فتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، وتأتيه الأساليب شعرا وشعورا وسحرا وجمالا ، كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة ودون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، وقد يتفق للشاعر منهم فى شعره من آثار الصنعة التى لم يقصدها البيت والبيتان فى القصيدة ، « وربما قرئت » من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل ،[١] وليس متكلفا تكلف أشعار المولدين ، وإنما وقع لهم عن غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا ، فلم تكن العرب تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافى وتلاحم الكلام بعضه ببعض[٢] ، فكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد فتأتيه المعانى أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا[٣] :

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التثقيف والصنعة فى الشعر على يدى أوس وزهير وتلاميذهما من الشعراء .

ومن أبرز رجال هذه المدرسة زهير ، « وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك[٢] » ، « وكان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ثم يظهرها فتسمى الحوليات[٤] » ، وعمل سبع قصائد فى سبع سنين وكان يسميها الحوليات[٥] ، وقيل كان ينظمها فى شهر ثم لا يزال يهذبها

(١) ١٦ البديع (٢) ١٠٨ ج ١ العمدة (٣) ١٥ ج ٣ البيان .
(٤) ١٣٤ صناعتين (٥) ٢٢٦ سر الفصاحة .

حتى يمر عليها الحول[١] ، قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا[٢] ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويقلب رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه وكانو يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقحات والمحكمات والمقلدات[٣] ، وقال : وكان زهير وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات[٤] ، ولعل رأى النقاد فى أنه كان يدع القصيدة عنده حولا يهذبها ويقوم ثقافها ويصبغها بصبغة من الصنعة والتنقيح مبالغة فى إطالة نظره فيها وصنعته لها .

وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم فكان الحطيئة صانعا حاذقا يقوم على شعره وينقحه[٥] ، كان يعمل القصيدة فى شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها[٦] ، وكان يقول خير الشعر الحولى المنقح[٧] أو المحكك[٨] ، ويشبهون طريقة الحطيئة فى الشعر بطريقة زهير[٩] وكان الأصمعى يعيبه من أجل[١٠] صنعته ، وكان الحطيئة راوية زهير[١١] ، وكان الفرزدق يروى للحطيئة كثيرا وكان أبو حية النميرى وهو من احسن الناس شعرا وألطفهم كلاما مؤتما بالفرزدق آخذا عنه كثير التعصب له والرواية عنه(١٢)، كما كان هدبة بن الحشرم راوية الحطيئة وجميل راوية هدبة وكثير راوية جميل(١٣).

وهكذا استمر هذا المذهب مذهب التثقيف وطول التهذيب منهجا فنيا يسير عليه بعض الشعراء حتى بعد العصر الجاهلى ، وكان أساسا لمذهب البديع الذى نشأ على يدى مسلم وأبى تمام وابن المعتز من المحدثين .

---

(١) ٣٨ ج ٣ الرافعى (٢) أى كاملا (٣) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين .

(٤) ١٤٩ ج ١ و ٢٤ ج ٢ البيان و ١٠٥ إعجاز القرآن .

(٥) ٦٠ من التصحيف والتحريف للعسكرى (٦) ١٣٥ صناعتين .

(٧) ١٤٩ ج ١ البيان (٨) ٢٥ ج ٢ ، ١٧٥ ج ١ العمدة ، ويروى ذلك عن زهير (٢٦٦ سر الفصاحة) .

(٩) ٢٦٧ سر الفصاحة (١٠) ١٥٠ ج ١ و ٢٥ ج ٢ البيان .

(١١) ٧٨ ج ٧ الأغانى (١٢) ١٧٢و١٧٣ ج ١ العمدة ، ٢٩٩الشعر والشعراء

(١٣) ٤٨ ج ٣ الرافعى ، ٣٠٠ الأدب الجاهلى ، ١٧٢ ج ١ العمدة،وكان كثير راوية جميل ومفضلا له (١٦ ج ٤ العقد) .

فنون الشـــعر العربي

(١)

فنون الشعر هي أغراضه وموضوعاته التي يقول فيها الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء وغزل وحكمة وماشاكل هذه الموضوعات التي عرفها الشعر والشعراء من قديم .

وأغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحا ، وكانت « أقسام الشعر في الجاهلية كما يقول أبو هلال خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي ، حتى زاد فيها النابغة سادسا هو الاعتذار فأحسن فيه ولا أعرف أحدا من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحتري [١] ، وليس للعرب شيء ينسب إلى التهاني وما جاء عنهم من شكلها فهو من جملة المدح [٢] » .

وقالوا : بني الشعر على المدح والهجاء والنسيب والرثاء ، وقالوا قواعد الشعر : الرغبة ومنها يكون المدح والشكر ، والرهبة ومعها يكون الاعتذار والاستعطاف ، والطرب ومعه يكون الشوق ورقة النسيب ، والغضب ومعه يكون الهجاء والعتاب . وقال الرماني : أكثر أغراض الشعر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف [٣] .

وقالوا : للشعراء فنون كثيرة تجمعها أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون . فمن المديح المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب وماأشبه ذلك وجانسه ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وماشاكل ذلك ، ومن اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر وما أشبه ذلك وقاربه [٤] ... وأول من عد فنون الشعر وميز بينها تمييزاً هو أبو تمام فإنه رتب كتابه الحماسة في عشر أبواب :

الحماسة ، والمراثي ، والأدب . والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف ، والمديح ، والصفات ، والسير ، والملح ومذمة النساء .

---

(١) ٩١ : ١ ديوان المعاني (٢) ٩٢ : ١ المرجع (٣) ١٠٠ : ١ العمدة
(٤) ٨١ نقد النثر .

أما البحترى فقد خالف أبا تمام فى ذلك وجعل حماسته التى عارض بها حماسة أستاذه أبى تمام ١٧٤ بابا وأهداها للفتح بن خاقان . ونجد الحماسة البصرية (١) لأبى الحسن البصرى اثنى عشر بابا : الحماسة والمديح . الرثاء . الأدب . الغزل . الأضياف . الهجاء . مذمة النساء . الصفات . النعوت والسير . الأكاذيب والخرافات . الزهد .

ويجعل عبد العزيز بن أبى الأصبع أغراض الشعر ثمانية عشر (٢) .

ورواة الشعر العربى فى العصور الأولى كان لهم أثر كبير فى تقسيم الشعر إلى فنون وأبواب :

فجامع ديوان أبى نواس (٣) يقسمه إلى فنون ثمان : المديح . المراثى . العتاب . الهجاء . الزهد . الطرد . الخمريات : الغزل والمجون .

وديوان أبو تمام (٤) مقسم إلى أبواب : المديح . المراثى . المعاتبات . الأوصاف . الغزل . الفخر . الهجاء .

وديوان ابن المعتز رواية الصولى مقسم إلى عشرة أبواب : الغزل . المديح . الهجاء . الخمريات . المعاتبات . الطرد . الأوصاف . الرثاء . الزهد . . وكان كثير من دواوين الشعر ترتب بحسب الحروف الهجائية للقوافى لا بحسب الأغراض ومنها ديوان البحترى (٥) ، أما ديوان ابن الرومى فلم يطبع إلا مختارات منه

---

(١) ٥٢٠ أدب مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) ٧١ : ٣ تاريخ آداب العرب للرافعى . (٣) اعتنى بجمع شعره جماعة منهم الصولى وعلى بن حمزة الأصفهانى وابراهيم ابن أحمد الطبرى .

(٤) جمعه الصولى ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهانى ورتبه على الأنواع (٢٨٣ : ١ كشف الظنون) .

(٥) جمعه الصولى ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهانى ورتبه على الأنواع (٣٧٨ : ١ كشف الظنون) .

ولا نعلم على أى نهج صنع جامعة فى ترتيب شعره(١) ... على أن ليس من السهل تقسيم الشعر العربى إلى أبواب شاملة تستوعب جميع ما جادت به قرائح الشعراء فالأبواب التى يطرقها الشعراء تختلف باختلاف العصور وباختلاف شخصيات الشعـــراء .

وبعض العلماء والنقاد يدخل بعض هذه الفنون فى بعض . فقدامة يرجع فى نقد الشعر الرثاء إلى المدح ويرى أن لافرق بينهما إلا فى اللفظ دون المعنى (٢) ، وإن كان هذا لم يحل بينه وبين أن يجعل أغراض الشعر ستة : المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والنسيب .

وأغراض الشعر عند ابن رشيق كما عدها فى عمدته : النسيب والمديح والافتخار والرثاء والاستنجاز والعتاب والوعيد والإنذار والهجاء والاعتذار .

ثم جاء البارودى فى العصر الحديث فسار قريبا من نهج أبى تمام فى تقسيم الشعر إلى فنونه المختلفة وهى عنده سبعة : الأدب والمديح والرثاء والصفات والنسيب والهجاء والزهد .

(٢)

هذا وأدباء الغرب يجعلون أبواب الشعر عامة ثلاثة : الشعر القصصى أو شعر الملاحم ، والشعر الغنائى أو الإنشادى والشعر التمثيلى أو المسرحى؛ وهذه الأقسام الثلاثة قـــد ظهرت للمرة الأولى فى الأدب اليونانى ثم أخذ الرومان يقلدون اليونان فى فنونهم وسار الأدب اللاتينى فى الطريق التى سار فيها الأدب اليونانى ، وفى عهد النهضة أخذ الأوربيون يدرسون الأصول اليونانية فتأثرت بها آدابهم تأثراً مباشرا ، وبنى الشعر الأوربى الحديث على

---

(١) عمل شعره ورتبه على الحروف الصولى وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد فيه نحو ألف بيت وابن سينا انتخبه وشرح مشكلات شعره (٣٨٢ ج ١ كشف) .

(٢) ٦١ نقد الشعر .

الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة ، والعرب مع اطلاعهم على علوم اليونان وفلسفتهم لم يهتموا بالإنتاج الأدبى اليونانى فلم يصل فن التمثيل إلى البلاد العربية إلا فى العصر الحديث عن طريق الغربيين ، كذلك لم ينشئ شعراء العربية قصصا منظومة على طريقة الألياذة ، والشعر العربى الذى بأيدينا اليوم كله من الشعر الغنائى .

(٣)

وبعد فإنى أرى أن يقسم الشعر إلى أقسام يكون من أهمها :

١ — الشعر الوجدانى وهو الذى يصف عواطف النفس ومشاعرها وآمالها وآلامها وأحزانها ومسراتها وحبها ولهوها .

٢ — الشعر الاجتماعى وهو الذى يحدثك عن المجتمع وحالته والبيئة والمؤثرات فيها والشخصيات وأثرها الاجتماعى فى حياة المجموعة العامة .

٣ — الشعر السياسى ويتناول وصف الحياة السياسية وأحداثها والرجال الذين بيدهم زمام الامور فى الدولة ممن تربطهم بالشاعر صلات خاصة أوعامة .

٤ — شعر الآداب والحكم والأخلاق .

٥ — الشعر الفنى وهو الذى يصور الحياة ويصف مظاهر الطبيعة والاحياء ويرسم لك صوراً حية لكل مافى الوجود من كائنات .

٦ — الشعر الإنسانى وهو الذى يتحدث عن آلام الإنسانية وآمالها ، وعن حقائق الحياة الخالدة ، وحكمها الرفيعة .

نشأة الشعر العربي

(١)

مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها بمر الزمان من طور إلى طور : فأولها دور البساطة وهو الدور الذى كان الكلام فيه بسيطا ساذجا خاليا من كل تفنن فى أسلوبه وتصنع فى ألفاظه .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدريج حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دوره الثانى وهو دور السجع . والسجع هو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روى واحد .

وكان السجع فاشيـــا فى كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية وكانوا يلتزمون السجع فى أكثر كلامهم لا سيما كلامهم فى خطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم سواء فى ذلك رجالهم ونساؤهم حتى ولدانهم وجواريهم الصغار . وكتب الأدب مشحونة بأسجاعهم فإذا رجعت إليها وتدبرتها علمت أن العرب مارسوا السجع وزاولوه فى أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه ، فأصبح لهم طبيعة تنتقل فيهم بالأرث الطبيعى من الآباء إلى الأبناء .

وبعد أن دخل الكلام فى دور السجع واستمر فيه قرونا عديدة ارتقى منه إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . ومما لا يستراب فيه أن الوزن فى الكلام قد تولد من السجع .

ومن الجائز أن يكون الكلام قد أتى موزونا من غير قصد كما نراه واقعا فى كلام الناس ومحاوراتهم كل يوم وقد وقع ذلك فى القرآن أيضا فتأتى قرينتان من الكلام المسجع متطابقتين فى الحركات والسكنات وذلك هو الوزن . ساعد على الوصول إلى الوزن : الغناء والسجع ، فالمسافة بين الكلام والوزن قد قصرت بالسجع وازدادت قصراً باقتران السجع بالغناء فاقتران السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة ، كما ساعد على ذلك الرقص ، ثم إن احتمال وقوع الوزن فى الكلام بطريق المصادفة يختلف قوة وضعفا باختلاف الأوزان الشعرية بساطة وتركيبا فما كان

من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس ونعنى ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه من الكلام المنثور بحيث يكون انطلاق الإنسان به سهلا وجرى الطبع عليه هينا .

وإذا نظرنا فى أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز إذ هو أسهلها على القريحة وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول حتى يصح أن يقال كل شاعر تبدأ شاعريته بالرجز وما ذلك إلا لسهولته وقرب مأخذه .

ويؤيد كون الرجز أول ما ظهر من الشعر ما ذكروه من أن الرجز أقدم الشعر .

وقد كان الشعر كله عندهم اسمان الرجز والقصيد فكل مالم يكن رجزا سموه قصيدا من أى بحر كان ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلى لما استنشده المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة :

أرجزا تريد أم قصيدا لقد سألت هينا موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جنس جمعى واحدته قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ما قلناه .

والخلاصة أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وأن الوزن متولد من السجع وأن أول مولود من أوزان الشعر هو الرجز وأن الشعر نشأ عن المصادفة وساعد على ظهوره الغناء والرقص .

وقال الرصافى : الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال فى الصحراء بحجة أنه أول ما استعمله العرب لسوق الجمال فى الحداء هكذا قال كثير ، ومن الغريب أن صاحب هذا الرأى قد ادعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الجمال مع أن فى تقطيعه من سرعة الانحدار والتسرد وتدارك المقاطع ما ينافى

كل المنافاة وقع خطى الجمال لما فى تلك الخطى من التؤدة والرزانة بسبب انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة .
ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الإبل لما سلمنا أنه يلزم من ذلك كون الرجز مأخوذا من وقع تلك الخطى إذ لو لزم منه ذلك للزم أن يكون وزن الكامل ولا سيما مجزوءه مأخوذا أيضا من وقع خطى الجمال بطريق الأولى لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز ويطابقها تمام المطابقة حتى إنك لو امتطيت جملا وجعلت وهو سائر بك سيرا وئيدا تنشد عليه شعرا من الكامل أو مجزوءه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدى جملك كما هو ظاهر للمتأمل .

فألفاظ الشاعر كانت سجعاً ثم صارت رجزاً ثم صارت شعرا ، والأقصر من الأشعار والأنقص هى المتقدمة فى النشأة لأن الطباع أسهل وقوعا عليها ومن ذلك النوع القصير : الأبيات السائرة والأمثال والحكم القصيرة .

ويقول الأستاذ لطفى جمعة[1] : إن العربى سمع أصوات النواعير[2] وحفيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحمائم ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذ له أن يبكى لبكائها وأن يكون صداها الحاكى لنغماتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم انه خيال قريحته ولا يدرك من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من حركات ناقته .

وقال كليمان هيوار : إن الأسفار الطويلة على ظهور الإبل حببت إلى العربى نشيد الألحان يتلهى بها وتشفى ما يصيبه من أوصاب ، ثم أدرك العربى المنشد أو الحادى أنه كلما سارع فى الانشاد رفعت الناقة رأسها وأوسعت خطاها كأن بين خطاها وأوزان الشعر ارتباطا فظهرت تلك الضروب عفواً لأنها ثمرة طبيعية من ثمار العبقرية البدوية .

---

(١) الشهاب الراصد ص ٢٧٧

(٢) هذا غريب من القول فأين النواعير وخرير الماء فى الصحراء والبادية

(٢)

ومن الناحية التاريخية لنشأة الشعر الجاهلي نقول :

كتب مؤرخ يوناني هو « سوزومين » في القرن الخامس الميلادي يقول: إنه في الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح تغلبت ملكة العرب مافيا على جيوش الرومان وهزمتها في فلسطين وفينيقيا فنظم شعراء العرب الأناشيد والأغاني وحفظوها ورددوها وتغنوا بها تخليدا للانتصار . وأثبت سانت تيلوس أحد حكام القسطنطينية وقد ترهب في آخر القرن الرابع الميلادي أنه سمع أناشيد العرب من صحراء سيناء[1]

فالشعر العربي المحكي قديم يرجع عهده إلى القرن الرابع للميلاد .

ويقول ابن سلام[2]:

« ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو جاهلي قديم :

اليوم يبنى لدويد بيته لوكان للدهر بلى أبليته

أو كان قرني واحدا أكفيته

وإنما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف » ، وكان أول بادىء لهذه النهضة الشعرية وسائر في اتجاهها المهلهل بن ربيعة . ثم جاء امرؤ القيس ، فرفع اللواء ، فكان أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وفرق بين القصيد وما سواه من القصيدة وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ، ورقق الأسلوب وجعله عذبا جزلا

---

(١) ٢٧٨ الشهاب الراصد

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزهر ، ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام

وأول من يروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر مهلهل[١]، ويقال ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة الكنانى، وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمائة سنة. وجاء امرؤ القيس بعد هؤلاء بمائتين وخمسين سنة تقريبا.

(٣)

وبعد فإن الباحثين يختلفون فى أول من أحدث هذه النهضة الفنية فى الشعر فهذبه وأطال فيه، وأسماء مهلهل وامرىء القيس والأفوه الأودى ولقيط ابن يعمر الأيادى وعمرو بن قميئة تتردد فى هذا المجال. ويقول السيوطى فى مزهره نقلا عن عمر بن شبة م ٢٦٢ هـ: « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه وقد اختلف فى ذلك العلماء وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعرا، فادعت اليمانية لامرىء القيس، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص، وتغلب لمهلهل، وبكر لعمرو ابن قميئة والمرقش الأكبر، وإياد لأبى دؤاد، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودى أقدم من هؤلاء وأنه أول من قصد القصيد، وهؤلاء النفر متقاربون لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها[٢].

وقد ضاع من الشعر الجاهلى الكثير «ولم يحفظ من الموزون عشره[٣]» «ولا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب كما يقول ابن سلام[٤]» وكان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان.

ويقول أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير(٥):

---

(١) يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء: «وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبى» (٢١ طبقات الشعراء، ٢٩٥ جـ ٢ المزهر للسيوطى)

(٢) ٢٩٦ جـ ٢ المزهر طبع صبيح

(٣) ٢٩٢ جـ ٢ المرجع: (٤) ٢٩٣ جـ ٢ المرجع وص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام طبع المطبعه المحمودية (٥) ١٦ طبقات الشعراء.

معنى الشعر عند النقاد

(١)

الشعر عرفه أرسطو بأنه كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية ، والمخيل الكلام الذى ينفعل له الإنسان انفعالا نفسانيا غير فكرى .

وعرفه قدامة وابن رشيق بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى ، وهو عند المعرى كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس ، ويقول ابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارات والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة والشاعر من شعر يشعر وإنما سمى شاعرا لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره ، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى .

ويعرفه المحدثون بأنه الكلام المنظوم الذى يعتمد فيه صاحبه على الخيال ويقصد فيه إلى الجمال الفنى ، وبأنه الكلام الموزون المقفى الذى يصور العاطفة ، ويعرفه الرصافى بأنه مرآة من الشعور تنعكس بها صور الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس .

ويقول أرنولد : هو كمال اللغة البشرية ، فبه يقرب الإنسان من الحق ويجسر على أن ينطق به ؛ ويقول كارليل : هو الموسيقى الأزلية التى يسمعها الشاعر من وراء الوجود . ويقول غيره : هو المحاولة الخالدة للتعبير عن الأشياء .

(٢)

وبعد فالشعر إلهام يفيض على القلب من عالم الروح ، ويلبس ثوبا من الخيال الساحر . وينطق بلغة العاطفة الشاعرة ، ويحدث آثارا بعيدة فى المشاعر والوجدان ، ويكشف معانى الحياة فى كل شىء تفكر فيه أو تحس به فى هذا الوجود ، والشاعر ملك يغنى على قيثارة الفن الخالدة ليبعث معانى الطفولة

الطاهرة والصوفية المتبتلة فى الحياة ، وليشرق بفنه مع الفجر روحية وطهرا ، ومع الصبح نورا وسحرا ، ومع الضحى قوة وحرارة ، ومع الأصيل هدوءاً وجمالا ، ومع الليل رهبة وروعة ، وهو من الأزل يغرد وسيعيش يغرد فى سرحة الفن ويملأ الوجود شدوا وغناء ، فى سبيل أداء الرسالة التى حملها والتى نيط بها بعث الجمال وإيقاظ الشعور وتجديد الأخلاق والسمو بالعواطف وإحياء معانى السعادة الروحية فى نفس الإنسان .

(٣)

والشعر عند بعض الأدباء الكلام البليغ المؤثر ، الذى يصور الشعور والإحساس والعاطفة ، وينطقُ عن حسن تخيل ودقة معان وجمال إلهام ، فهو على هذا لا يجب أن يكون موزونا ، فالنثر قد يكون شعرا إذا اشتمل على لطف التخيل وروعة الشعور ، ولقد قال حسان لابنه عند ماوصف له زنبورا لسعه فأحسن الوصف وسما به إلى درجة جميلة من جمال الخيال والتخيل ، قال : قلت لبشار بن برد إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة فقال : أنا علمت أن المشاور بين إحدى الحسنيين بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يشارك فى مكروهه ، فقلت له : والله أنت فى كلامك هذا أشعر منك فى أبياتك ، فقد جعل الأصمعى وناهيك به من إمام فى الأدب نثر بشار شعرا ، إذ قال له « أنت فى هذا الكلام أشعر » .

ولم يسم المنظوم شعرا لكونه ذا وزن وقافية ، بل لكونه فى الغالب يتضمن المعانى الشعرية ، أولأن العرب فى الغالب لاتنظم الكلام إلا شعرا ، ويؤيد ذلك أن العرب عدو القرآن شعرا لسحره وروعة تصويره وبليغ أثره

وجمهور الأدباء على اشتراط الوزن فى الشعر . ويقتصر بعضهم على الوزن مع الخيال والعاطفة والشعور والإحساس والإلهام الفنى الخاص ، وهؤلاء لا يشترطون فى الشعر أن يكون مقفى بل هم يزدرون القافية ويدعون إلى اطراحها لأنها وإن تعددت فى القصيدة الواحدة — بجعل كل

قسم من أقسامها على قافية — هى قيد للشاعر وعبء ثقيل إذ لا تدع الشاعر حراً فى إظهار ما يريده من معنى أو شعور ، وهى السبب الأكبر لتأخر الشعر العربى عن الشعر فى الآداب الغربية ، ويرون أنها « عضو أثرى قد بقى من كلمات كان يكررها فى آخر كل بيت النادب فى المناحاة والمتحمس فى الحرب والصدام يوم تولد الشعر فى عصور الجاهلية الأولى ، ولا بد من زواله بالتمام لعدم فائدته اليوم ولتقييده الشعر فلا يتقدم حرا كبقية الفنون ، فإذا حرر الشعر من قيد القافية انصرف الشعراء إلى المعانى التى يريدونها لا إلى الألفاظ وإلى إظهار الشعور الحقيق الذى تجيش به نفوسهم لا إلى الشعور الكاذب الذى تضطرهم إلى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كونها على صورة خاصة من صور الإعراب فى آخر كل بيت[1] » .

ويقولون : إنه إذا اتسعت القوافى لشتى المعانى والمقاصد ، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل ، وما كانت العرب تنكر القافية المرسلة فقد كان شعراؤهم يتساهلون فى التزام القافية كما فى قول الشاعر[2] :

ألا هل ترى ان لم تكن أم مالك   بملك يدى أن الكفاء قليل
رأى من رفيقيه جفاء وغلظة   إذا قام يبتاغ القلوص ذميم
فقال أقلا واتركا الرحل إننى   بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل   لمن جمل رخو الملاط نجيب

فعندهم القافية ليست من الشعر لأن الشعر بالوزن وحده فهو الموسيق

---

(١) من مقال للشاعر جميل صدق الزهاوى نشره فى السياسة الأسبوعية عدد ٣ - ٩ - ١٩٢٧ .

(٢) هذا خطأ وما ذكروه من ذلك ليس إلا بقايا من آثار التطور الفنى فى الشعر العربى فى عصور نشأته الأولى . كما أن اختلاط الوزن فى قصيدة عبيد بن الأبرص كان أثرا من آثار التطور الفنى فى الشعر العربى فى نشأته الغابرة .

التى تميزه من النثر. وما الحرص على بقاء القافية المشتركة فى القصيدة إلا نتيجة الألف والعادة ، فإذا ألفت الأسماع الشعر المرسل استهجنت القوافى كما تستهجن الأذواق اليوم السجع فى النثر .

ويرى هؤلاء أنه ليس فى الأوزان القديمة كبير ضرر وهى فى الأغلب أرقى من الأوزان الغربية لأن أكثر البحور مركب من تفاعيل مختلفة بخلاف ما تألف من مقاطع متشابهة ، والتركيب دليل الرقى : نعم قد لا يوافق أكثر هذه الأوزان ضروب الغناء العصرى .

وهؤلاء لا يتقيدون بأوزان الخليل المأثورة فعندهم الأزان العربية ليست ستة عشر وزنا كما هو الشائع بل هى مع تفرعاتها قد تزيد على الخمسين ومن الميسر إكثار هذا العدد .

والجمهور على جعل القافية شرطا أسياسيا فى الشعر ، ولا مانع عند بعضهم من تسهيل صعوبات القافية بتعدد القوافى فى القصيدة الواحدة حسب أغراضها أو على نهج المخمسات والمربعات والموشحات والأراجيز وماشاكل ذلك .

ولكن هل الشعر لفظ ووزن وقافية فحسب ، يرى الكثير من النقاد أنه لا يكفى فيه ذلك وانه لابد أن يشتمل على معنى لطيف أو حكمة بارعة أو تشبيه جميل أو خيال بارع ، فالمعنى والخيال والعاطفة والتجربة الشعرية من أهم عناصره .

وهذا حق وصدق ، فالشعر لابد أن يحتوى مع الوزن والقافية على إلهام فنى رائع وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالكون والطبيعة والبيئة دقيق .

انتهى الكتاب

فهـــرس الكتاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمؤلف

١ ــ قصة الأدب في مصر (٥ أجزاء)
٢ ــ قصة الأدب في الأندلس (٥ أجزاء)
٣ ــ قصة الأدب المعاصر (٤ أجزاء)
٤ ــ صور من الأدب الحديث (٤ أجزاء)
٥ ــ دراسات في الأدب والنقد
٦ ــ مع الشعراء المعاصرين
٧ ــ الأزهر في ألف عام (٣ أجزاء)
٨ ــ في ظلال الإسلام (بالاشتراك)
٩ ــ مواكب الحرية في مصر الإسلامية
١٠ ــ التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر
١١ ــ الشعر والتجديد
١٢ ــ رائد الشعر الحديث (جزءان)
١٣ ــ من تاريخنا المعاصر




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح ـ ت : ٥٠٨٥٢

ص
٢٥